رئيس التحرير: وائل مجدى

شذرات ثقافية



العدد 28

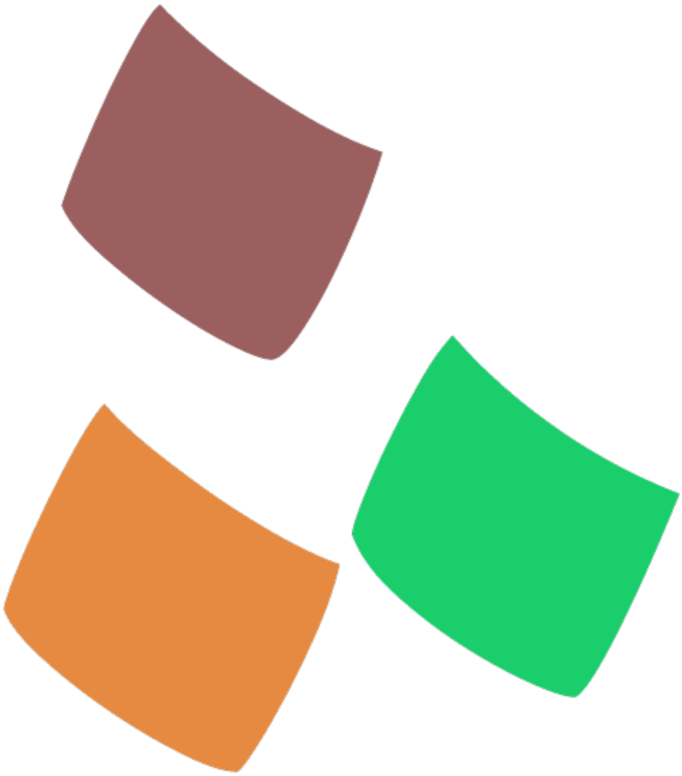
الفهرس

رئيس التحرير: وائل مجدي

شذرات ثقافية

العدد

28



من شُعَب الإيمان (8)

☆ أن نُرَشِّدَ طاقتي الكلام والاستماع!

☆ إن الإنسان المكلف العاقل يمتلك مجموعة من الطاقات، يستهلكها في زمن محدد من حياته، ومن كان رشيدًا فإنه يُنظم طاقاته؛ بحيث يبذل أقل قدر منها؛ ليحصل على أعظم فائدة ممكنة؛ ومن هذه الطاقات الهائلة:

طاقة الكلام، وطاقة الاستماع!

☆ وإن من شُعَب الإيمان: انتقاء ما نتكلم به، وما نستمع إليه!

☆ قال الله تعالى: {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد}، وقال تعالى: {إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولًا}

☆ وجعل الله من صفات المؤمنين المفلحين وارثي جنة الفردوس: {والذين هم عن اللغو معرضون}

☆ وجعل من صفات عباد الرحمن؛ الذين رضي عنهم، وأرضاهم: {والذين لا يشهدون الزور، وإذا مروا باللغو مروا كرامًا}

☆ وإن لله عبادًا أذكياء، علموا أن وقتهم هو رأسُ مالهم الحقيقي، وأن طاقاتهم هي وسائلهم الحاملة لهم على الحياة الطيبة؛ في الدنيا، ثم في الآخرة؛ فرشَّدُوا طاقتي الكلام والاستماع؛ فلا يتكلمون إلا فيما هو نافع مفيد، في شؤون المعاش أو المعاد، وحفظوا ألسنتهم وآذانهم من اللغو الذي لا طائل من ورائه، وصانوهما من كل ما يقربهم إلى سخط الله وعقوبته؛ من الكذب، والغيبة، والنميمة، والافتراء، وشهادة الزور، وفُحش الحديث، واكتفوا من الكلام بأنفعه، ومن السماع

بأحسنه، فغنموا أعمارهم، وبيَّضوا صحائفَهم، واكتسبوا الوقارَ في أقوامهم، وأصبحتِ الشفاهُ لا تنطق في محضرهم إلا بالجميل، والآذان: تتلقف من كلامهم الحكمة والرشاد.

☆ فاللهم زَيِّنْ ألسنتَنا بالكلام الطيب؛ نطقًا، وزكِ آذاننا باللفظ الجميل؛ استماعًا.



- الأستاذ الدكتور محمد صالحين

هو الله.

فى الاحتفال باليوم العالمي للفلسفة

وكأستاذ للفلسفة الإسلامية وكمشاركة مني في هذه الاحتفالية العالمية

أهديكم أحبتي مقالتي :

إنها طبيعة الإنسان دأبه وديدنه البحث عن الحقيقة، والغوص في عالم المجردات، العالم المفارق، الترانستندالي المتعالي، روحه توأقة إلي الوصول إلي المطلق، وهل الإله موجود وما حقيقة وجوده وما حقيقة ذاته، وتلك غريزة وضعها الله في فطرة الإنسان، فمنذ نعومة أظافره يطرح التساؤل الذي قد يثير الدهشة، هل الله موجود وأين يوجد، وإذا كان موجود لماذا لا يتحقق وجوده ونراه، وإذا كان موجود فما هي علاقته بالعالم، ولماذا خلقه، ولماذا خلق الإنسان، وما حقيقة الموت والحياة الآخرة، وهل هناك بعث وجزاء ثوابا وعقابا، ولماذا خلق الموت، ولماذا خلق الخير والشر، ولماذا كتب علي عباده أن يكون منهم شقي ومنهم سعيد.

هذه الموضوعات كانت شغل الفلاسفة الشاغل منذ القدم بدءا من حضارات الشرق القديم مرورا بالمدارس الطبيعية الأولي اليونانية، المدرسة الايلية، الايونية، الفيثاغورية ، المدرسة الذرية، وكذلك كانت شغل فلاسفة اليونان أفلاطون الذي حدثنا عن عالم آخر عالم تشتاق النفس إليه عالم المثل، ومن قبله سقراط الذي حدثنا عن السعادة في العالم الآخر وتوق النفس إليه، ومن بعدهما أرسطو الذي أولي هذه الموضوعات أهمية خالصة وعالجها معالجة عقلانية أسس علي إثرها فلاسفة الإسلام، أسسوا عليها المدرسة المشائية الأرسطية، ومنهم من قبل فكره ومنهم من قام بنقده، إلي أن وصلنا إلي فلاسفة العصور الوسطي الإسلامية والمسيحية واليهودية، ومن قبلهم فكر المتكلمين، الذين أفردوا مؤلفات

بعينها ناقشوا فيها هذه الموضوعات كالمعتزلة والأشاعرة، والماتريدية، وغيرها من المدارس الكلامية.

وكذلك الأمر بالنسبة لفلاسفة العصر الحديث تطرقوا لمثل هذه الموضوعات فنجد علي سبيل المثال ليبنتيز أطلق علي الإله إسم المونادالأعظم Monedes والذي يعني القوة الفعالة السارية في الكون والتي تهيمن عليه وتتولي تنظيمه وتدبيره.

وكذلك نجد كانط تحدث عن الإله وقال أنه موجود ولا أحد ينكر وجوده وهو فكرة محل للتفكير، بل ومن المعارف الفطرية البدهية، المغروسة بداخل الإنسان وأطلق عليها المعارف القبلية Aproiri، وتأتي بعدها المعارف البعديةApstoroiri، أي التي تأتي بالتعلم والاكتساب والبحث، ونجد هيجل أطلق عليه المطلق، وجاءت جل فلسفته الميتافيزيقية بحثا عن المطلق المفارق المتعالي الترانستندالي بتعبير فلاسفة العصر الحديث.

فالكل أعمل عقله واجتهد قدر طاقته، فالفلسفة بحث للوصول إلي حقائق الأشياء وكليات الأمور حسب طاقة الإنسان وقدراته العقلية، وهذا جد مهم، بل ونحمد لهؤلاء جميعا جهودهم ونباركها.

لكن السؤال ما هي رؤيتنا لهذه القضية وكيف نتعامل معها إذا جبهنا بسؤال حتي قد يكون من الرجل البسيط عامي الإيمان، أو من ملحد لا يعترف بدين ولا ديان، أو من إنسان يحب الفلسفة والتعقل، أو حتي من طفل صغير، وكثيرة هي أسئلة الأطفال المحيرة.

الرأي عندي عندما تطرح هذه الأسئلة من رجل بسيط عامي الإيمان، أين الله، لابد أن تكون اجاباتنا مبسطة واضحة لا يغلب عليه الجدل الفلسفي ولا آراء الفلاسفة، وانما اجابات هادئة موجزة واضحة بذاتها، مثل نعم الله تعالي موجود، ولو كان هذا الرجل يبيع علي عربة بسيطة أي سلعة ترد عليه تقول من الذي هيئ لك هذه السلعة وهذا البيع، بالضرورة قد يرد عليك قائلا الله، إذا الله تعالي موجود.

ولو جبهنا بهذا السؤال من ملحد، كأن يقول الله غير موجود، ماذا سيكون التعامل مع هذا الموقف، لو لم تستطع الرد أتركه وانصرف حتي لا يزداد طغيانا علي طغيانه، وإن كانت لديك القدرة علي الحجاج والمحاججة فلتناقش وتقول ألا تدل البعرة علي البعير، السير علي المسير، ألا تدل سماء ذات ارتفاع وأرض ذات اتساع علي مبدع وخالق خلقها، هو ساعتها قد لا يستطيع أن يرد عليك أو يدخلك في موضوع آخر كأن يقول وحتي لو فرض موجود، فهو لا يخلق الأشياء بحكمة، بمعني كأن يقول لم خلق الليل والنهار، ولم خلق الخير والشر، ولم جعل الناس بعضهم خير وبعضهم شرير، ولماذا يعذب الله الإنسان يوم القيامة، وتلك أسئلة مهمة وحساسة تحتاج إلي فكر منضبط، ردك سيكون وماذا لو لم يخلق الإله هذه الأشياء، هل ستكون حياة، هل تستقيم أمور الإنسان.

كالذي قال نخلة ذات إرتفاع شاهق وتنتج تمرة صغيرة، وعشب بطيخ علي سطح الأرض ينتج بطيخا يزن كيلوات ، وينام تحت النخلة وتسقط عليه تمرة تشج رأسه، فيا أيها المتعلق ما بالك لو النخلة أنتجت بطيخا وسقط علي رأسك.

إذا الله تعالي موجود ولا يحتاج إلي دليل فدليل وجوده كامن في وجوده ليس هذا وحسب بل وفي جوده وعنايته بكل الموجودات، بل وكل الموجودات علويها وسفليها في حاجة إليه ومفتقرة إليه، فيا إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، لكن من أراد الدليل فالدليل موجود، ألا وهو ظهوره في كمونه وكمونه في ظهوره، علنه في سره وسره في علنه، فهو تعالي الأول والآخر والظاهر والباطن.

أما وحدانيته وهذا خطاب للجميع، خطاب عقل نقلي، يقول تعالي، "قل هو الله أحد"فالله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد، لماذا؟! لأن هذه صفات للمحدثات المخلوقات، وكل مخلوق سيفني والله تعالي لا يفني، ليس هذا وحسب بل الله

تعالي لا يتبعض ولا يتجزأ ولا يتكثر وليس بذي جهة بعينها بمعني لا تحده الحدود، ولا تدركه الأبصار وانما تعيه البصائر الصافية التي تجردت من شواغل الحس ونزوات المادة ففاضت عليها نورانية خالصة رأت من خلالها ما لا يرآه الآخرون.

أما منطلق العقل، فتعالوا معي أيدكم الله بروح منه وبصيرة، هل تستقيم سفينة في طريقها بربانين، بقائدين، إذا أراد أحدهما أن يتجه يمينا والآخر أراد أن يتجه يسارا واختلافا، هل سيصلنان بالسفينة إلي بر النجاة،منطق العقل يقول لا ستغرق السفينة، وقس علي ذلك، وهذا قياس مع الفارق، للتقريب للأفهام ،الممالك والدول هل تستقيم بملكين أو رئيسين، لا يمكن بحال من الأحوال، لابد وبالحتمية المنطقية لابد من قائد واحد، ولا مندوحة من الاستعانة بوزراء ومستشارين، لكن القرار لن يصدره إلا واحد وإلا سيحدث ما لا يحمد عقباه، وتضيع الممالك والدويلات.

لنعتبر هذه الآية الكريمة"لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا"، وكذلك"شهد الله أنه لا إله إلا هو"

وأيضا قوله تعالي"قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذن لابتغوا إلي ذي العرش سبيلا"فما الحال لو كان هناك الهين أحدهما أراد أن يفعل كذا كأن يحيي إنسان، والآخر أراد أماتته، وماذا سيحدث لو تحقق مراد أحدهما دون الآخر، سيحدث أن أحدهما سيكون قادرا والآخر عاجزا، فهل الإله عاجز؟!!! وإذا تحقق مرادهما معا، وهذا مستحيل عقلا، فكيف يكون الإنسان حي وميت في آن واحد؟!!وفي هذا تعطيل للقدرة الإلهية، وهذا محال في حق الإله.

فيا من تشككون في وجود الإله وفي وحدانيته، ويا من تحتكمون إلي العقل، خاطبنا عقولكم، فهل انتهيتم أم ماذا أنتم فاعلون.

قفوا عن منتهاكم ولا تجعلوا الأوهام تتخبطكم ولا تجعلوا الشيطان الماكر يعبث بعقولكم، واعلموا أن الله أعطانا هذه العقول لنتفكر بها فيه وفي مخلوقاته، لا أن تضلنا وتقودنا إلي التيه والضلال.



- بقلم د.عادل القليعي.
- أستاذ الفلسفة الإسلامية. بآداب حلوان.

كل شيء هو نفسه، إلا الإنسان!

منذ ظهور الإنسانية ، وقانونها الطبيعي الفطري مفاده أن الإنسان : "مخلوق عاقل، مفكر، ناطق بلغة تعبر عما يجول بعقله وفكره ومشاعره، فاعل بجوارحه وأركانه ما عبر عنه لسانه". ولعل أسباب عدم مطابقة لغته لفعله يعود لـ"لأمر طبيعي" له جذور تكوينية في أصل الإنسان غير المتسامي بتدين صحيح، وخلق وازع، وإيمان رادع. و"أمر آخر دخيل" علي ثقافتنا وحضارتنا العربية الإسلامية. وفي عقود متكررة نري هذين الأمرين قد اجتمعا في سفور، فأفسدا وسمما جوانب عدة من الحياة، يقول الأستاذ "أحمد أمين": "ومن عجيب الأمر أن كل شيء في الوجود يعمل وفق طبيعته، ويوافق بين ظاهره وباطنه، وتصدر أعماله منسجمة مع خِلقته، ويعبر دوما عن جِبلته، سواء في ذلك الجماد والنبات والحيوان. إلا الإنسان فإنه هو الوحيد الذي يستطيع أن يخدع، وأن يظهر علي غير طبيعته، وأن يقول غير ما يعتقد وأن يفعل غير ما يقول" (انظر كتاب : "ركائز الإيمان بين العقل والقلب"، لمحمد الغزالي، 2001، ص 104).

مظاهر وعلل:

خلق الله الإنسان وميزه بنعمة العقل ولكنه ينسى بل -أحيانا- يتناسى، وتغلبه دوافع طينته علي سمو روحه . فينسى عيوبه ويتناسى نواقصه، ويطلب من غيره ما تعجز إرادته عن تحقيقه في كثير من الجوانب .

لا تنه عن خلق وتأتي مثله = عار عليك إذا فعلت عـــظيم.

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها = فـــإذا انتهت فأنت حـــكيم.

فهناك
يُسمع ما تقول ويُشتفي = بالقول منك وينفع التعليم.

والإنسان عامة لا يعبر عن حقيقته دائماً ، فكما أن شجرة التفاح تعطي تفاحاً لا حنظلاً، وكما أن الحديد والنحاس لهما خصائصهما المميزة المتفردة ، وكما أن المخلوقات الحية إذا ما جاعت طعمت ، وإذا ما ظمئت شربت، وإذا ما تلاقحت أمسكت حتى يلدن . أما ألإنسان فهو الوحيد الذي لديه القدرة علي أن يعبر عن جوعه وهو متخم، وعن حبه وهو كاره، وعن فقره وهو غني، عن وفائه وهو خائن، وعن إخلاصه وهو مُبغض، وعن حبه لمذهب وهو يميل لآخر، وعن نهوضه بتبعات مسئوليات وهو غاش، كاذب، ظالم، فاسد الخ" يقول تعالي: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ، َإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ") البقرة:204- 205).

مع أنك تجد الفكر واليدين تتعاونان تعاوناً عجيباً فيستجيب كل منهما للآخر عند إصلاح عطب في جهاز ما، أو عند تنسيق حديقة، أو عند إبداع لوحة، أو نظم قصيدة، أو إنشاء مقال الخ. ومع هذا فثمة من يتدخل تدخلا "إرادياً سافراً" في هذا التعاون والتناسق الطبيعي بين ملكات الإنسان وقدراته وأفكاره وأقواله وأعماله ، لتجد ما تجد، وليسفر عما يسفر من مخالفة بين الأقوال والأعمال في كثير من المواقف التي يقف خلفها "أهواء" شتي غير تلك التي تقف خلف تلكم الأمور اليومية الاعتيادية الخ.

<u>"أمر آخر دخيل"</u>

كان قدماء اليونان والرومان، يُفرقون بين المفكرين/ المنظرين/ الفلاسفة الذين يستخدمون (يقولون) بألسنتهم تعبيرا عما يجول بعقولهم ورؤوسهم، بين هؤلاء العاملين الذين (يفعلون) بأيديهم (كأنما لا يستخدمون عقولهم) من عمال وحرفيين وصناع وزراع الخ. حتى باتت تلكم الفئة الأخيرة- أشخاص وأعمال وحرف وصناعات - دون الأولي ..مرتبة وحظوة، ومكانة ومكاناً. فوفق هذا التقسيم، وعلي سبيل التمثيل..لم تنل "حرفة ومهارة وفن الجراحة" مكانها ومكانتها

إلا في عقود متأخرة، وتركت - كونها عمل يدوي - للسُوقة (الحلاقين)، مقارنة بـ (الأطباء) الذين ينظرون ويتأملون ويفكرون في أساب المرض وفلسفته، نظرة هنا وأخري هناك إلي الضوء والحرارة والفلك وحركة الكواكب والأفلاك (لعل من هنا تم اشتقاق لفظة: طبيب/ Physician ، والتي تعود إلي الفيزياء/ physics).

وهذا التصنيف والتمايز بين أصحاب (الأقوال) وبين أرباب (الأفعال) تجده واضحاً باديا جلياً في "جمهورية أفلاطون"، وغيرها من مصنفاتهم التي..انفتحت وتعرفت وتعارفت وامتزجت بها ثقافتنا العربية ألإسلامية مع باقي الثقافات الأخرى أيام التوسع وانتشار أشعة الحضارة العربية الإسلامية. فنشأ علم بعينه وغاية في ذاته، هو"علم الكلام". فالفكر بلا عمل مناقشات عقيمة، وشقشقة فارغة، وثنائية عقيم بين "النظرية والتطبيق/ المنهاج والممارسة"، وألعاب بهلوانية لا تسمن ولا تغني من جوع. فقوة الفكرة وصدقها وأيمان بها، تكمن في تحويلها إلي عمل مثمر، وواقع ملموس، وأثر باق.

والمتأمل في حضاراتنا العربية الإسلامية ، وفي ديوان أدبها.. شعراً، ونثراً، وتواصلها.. شفاهة وكتابة، لا يجد عن - فيما قبل الإسلام وبعده بعقود- ملامح هذا "التناقض" سافراً بادياً. لقد كان غالب أحوالهم هو الإدراك الكبير لما للكلمة من أثر وتبعات إذا ما قيلت أو أُعلنت.. وعدا أو حباً، حرباً أو سلماً ، وفاءً أو عداءً ، إيماناً أو كفراً. ولعل أبلغ مثال علي ذلك - وهو مثال يبعث الدهشة والعجب هو إحجام كثير من رجالات قريش عن قول كلمة التوحيد " لا إله إلا الله" حتى مع ضمان الرسول الأكرم صلي الله عليه وسلم لهم إذا قالوها بالفلاح. بل لقد شنوا حروباً وأسالوا دماءً ، في سبيل التمسك بـ"أقوالهم ومعتقداتهم" التي عرف كثير منهم فيما بعد أنه كانت باطلة، وثابوا إلي رشدهم. فكان "خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام " عندما فقهوا الأمر. لكن علي جانب آخر.. بدا "نفاق" نفر من أهل المدينة، وعلي رأسهم "عبد الله بن أبي بن سلول" واضحاً جلياً لما أدركوا أن

"مكانتهم / تاجهم/ زعامتهم الدنيوية / نفوذهم/ سلطتهم/ سلطانهم المادي" قد أضمحل بجوار "هذا الدين الجديد/ الإسلام". وما أحدثه من تغيير شامل علي كافة الصعد. فكان من أمر هؤلاء النفر ما كان، ولقد فضح القرآن شأنهم من إظهارهم خلاف ما يبطنون، وحقدهم واستعلائهم، وبثهم الدسائس، وتحالفاتهم المشبوهة، وخذلانهم وتخذيليهم، ونخرهم كالسوس في بنيان المجتمع المسلم.

ما المطلوب من الإنسان؟

لقد كرّم الخالق عز وجل، الإنسان وأمره بالصدق والأمانة والعدل، والوفاء، والبيان والتبيان، وعدم الكتمان، ونهاه عن الكذب والغش والغدر والخيانة والنفاق. يقول تعالي:"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ *كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُون" (الصف:2-3). فللكلمة جمال، وللفكرة جلال، وهما ليسا مداداً يُنثر علي ورق، وزفرات من هواء تنطلق ، وتنظير يفتقد لتطبيق. بل إن لهما لمسئولية وتبعات وتطبيق وتوجيهات، وصدق وإخلاص وتضحيات. وقد يقول قائل : نظن أحياناً أننا نكتب لغير ما قارئ، فهل نترك القول/ الكتابة ؟!. لكن تفاجأ - أن أقوالك وكلماتك المخلصة المتوافقة، قد نبتت وأينعت وأثمرت من حيث لم تحتسب مكاناً وزماناً ، وأثراً وتأثيراً.

"إن الرائد لا يكذب أهله"، فكم من رواد يكذبون ويخدعون ويغشون ويزورون ويرتكبون "جرائم/ ذنوباً / معاص حضارية" ولا يطرف لهم جفن. فلماذا قول الخير والحث عليه، مع عدم فعله؟، والنهي عن الشر مع الاتصاف به. إن الأقوال.. موعظة وتذكيراً لن تبلغ أثرها المنشود دون اقترانها بالعمل من لدن قائليها، وضربهم المثل العملي .. كقدوة بارزة مبادرة فيما يقولون ويعظون. إنه لوعيد شديد لمن يأمر بمعروف، ولا يأتيه، وينه عن منكر ويأتيه، قال تعالى: " أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ

الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" (البقرة:44)، فهل هذه حالة تليق بعاقلين مؤمنين؟. لقد كبر مقتاً عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل . يقول شعيب عليه السلام لقومه: " قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ " (هود:88)". قال احد الحكماء :"أفسد الناس جاهل ناسك، وعالم فاسق، هذا يدعو الناس إلى جهله بنسكه وهذا ينفر الناس عن علمه بفسقه". كما أن العالم الذي لا يعمل بعلمه مثله كمثل المصباح، يضيء للناس بينما يحرق نفسه. وهو إذا حث على التحلي بفضيلة وهو عاطل منها، أو أمر بالتخلي عن نقيصة وهو ملوث بها لا يقابل قوله إلا بالرد، ولا يعامل إلا بالإعراض والإهمال، بل سيكون موضع حيره للبسطاء، ومحل سخرية للعقلاء، فسيُسخر منه، ويُستهزئ به، ويتهم فى دينه وعلمه وورعه.

غاض الوفاء وفاض الغدر، واتسعت مسافة الخُلف بين القول والعمل

ويروي عن "أسامة بن زيد" رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك، ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه".(رواه مسلم.. تندلق أقتابه: تخرج أمعاؤه). فالحذر الحذر..من مخالفة الأقوال الأعمال. وحذار أن يكون النصح باللسان والقول دون الجنان والعمل .فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: إن أوَّل من تُسعر بهم النار يوم القيامة: "... ورجلٌ تعلّم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأتي به فعرَّفه

نعمه، فعرفها ، قال: فما عملت فيها ؟ قال : تعلَّمتُ العلم وعلَّمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلّمت العلم ليقال : إنك عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النَّار" (رواه مسلم، والترمذى والنسائي).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم :(رأيت ليلة أسري بي رجالاً تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون" (أخرجه أحمد 120/3 ، وصححه الألباني). وعند البيهقي : (أتيت ليلة أُسري بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار ، كلما قرضت وفت ، فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويقرءون كتاب الله ولا يعملون به)رواه البيهقي في "شعب الإيمان"وحسنه الألباني في صحيح الجام). وعن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه)"رواه الطبرانى بإسناد حسن). وعن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال عليه الصلاة والسلام: "أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان"(رواه الطبراني في الكبير والبزار). فيجب على كل من يعظ الغير أن يتعظ هو أولاً ثم يعظ ، ويُبصر ثم يُبصّر، ويهتدى ثم يهدى غيره ولا يكون دفتراً يفيد ولا يستفيد ، وأن يكون كالمسك يطيب غيره وهو طيب فى نفسه، وأن لا يناقض مقاله بفعله، ولا يكذّب لسانه بحاله.

ما المطلوب من الأمة؟

إن دنيا الأقوال المخالفة للأفعال، هي داء وديدن حياة الأمم المترنحة/ الهزيلة/ المتخلفة التي ليس لها في ميزان الأمم ثقل. ولن تقوم لها قائمة طالما تم انتهاج سبيل الأمرين، الأقوال والأفعال/ النظرية والتطبيق/ الظاهر والباطن/ حركات اللسان وأفعال الأبدان، علي أنهما

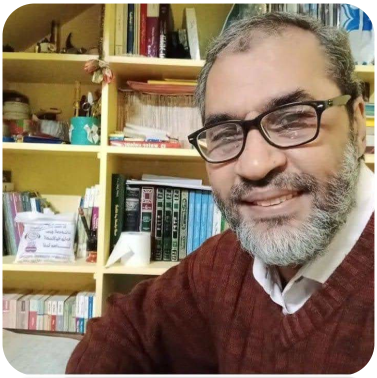
ضدين/ مرنين، متوازيان/ لا يجتمعان.

إن إلغاء تلكم الثنائية لمطلب ملح كي تخرج الأمة/ الشخصية العربية المسلمة من تمزقاتها وتشطيرها ومعاناتها من اجل نهوض حقيقي، وصحوة راشدة فاعلة، ومسئولية أخلاقية وإنسانية وحضارية، وريادة رسالية مؤثرة. أن رفعة ومكان ومكانة هذه الأمة وشخوصها، فرادي وجماعات، مرهون بتوجهها.. قلباً وقالباً، جوهراً ومظهراً، لله تعالي.. نية وإخلاصاً وتوافقا من شرعه تعالي ..قرآناً وسنة، عاملة بالخير داعية إليه، مجانبة للشر، ناهية عنه. وإذا فعلت ذلك فقد توحدت شخصيتها، وسكنت نفسها، وتجاوزت أزماتها ومشكلاتها، وحازت مكانها اللائق مكانتها الرفيعة، وريادتها المُستحقة.

فعلي صعيد العلاقات الثنائية والجماعية.. بين مالك ومستأجر، دائن ومدين، عامل وصاحب مصلحة، كاتب وقارئ الخ يجب تحليها بالصدق والوفاء والرحمة والتسامح والنصح الجميل ابتغاء المثوبة من الله أولا وآخراً. وعلي الأمة أن تكون قوية الأركان، راسخة البينان، رسالية التبيان، مهيبة رائدة، بعدما : "يوشك أن تداعي الأمم عليكم كما تداعي الأكلة إلي قصعتها..قالوا: أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال:" لا، بل أنتم كثير، لكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن". قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت" (رواه أبو داوود، وفي صحيح أبي داوود للألباني). وألا يكون لديها "أزمة هوية/ وتوجه/ وإفقار/ وتخلف". وأن تعالج عللها المتفشية، وأمراضها الاجتماعية ، ومشكلاتها العامة.

وفي الختام: كل شيء هو نفسه إلا الإنسان، فكثيراً ما يكون غير نفسه. حتى بات الظن أن اللغة لم تخترع للتعبير الصادق عن النفس بل لإخفاء ما فيها والتمويه علي الناس حتى لا يدركوا حقيقة ما فيها. إن دنيا الأقوال المخالفة للأعمال هي سبب قُرح المعدات، وانتشار الحوادث المشاجرات، وشيوع الانهيارات العصبية والعائلية والعمرانية والاجتماعية. ويبقي أن الإنسان/ المجتمعات / الأمم بما أودعت

من "هداية النجدين"، و"حرية الاختيار" هي محل المسئولية/ المساءلة والحساب الدنيوي والأخروي. إن هؤلاء النفر من الرسل والأنبياء ومن نهج نهجهم من الشهداء والصديقين والصالحين والمًصلحين والمؤمنين المخلصين، والمجتمعات والأمم الصالحة المُصلحة هم الذين ضربوا المثل والقدوة والأنموذج الحيّ التنفيذي العملي لمطابقة الأقوال للأفعال.



- أ.د. ناصر أحمد سنه
- كاتب وأكاديمي مصري.

معركة "كارانسيبيس ...." أغبى معركة في التاريخ

(من وعي التاريخ في صدره فقد أضاف أعماراً إلى عمره)



الحاضر غرس الماضي والتاريخ سجل الزمن لكل الأحداث والأشخاص والأزمان والوقائع، فهيا بنا صديقي القادرئ نقلب معاً سجلات التاريخ لنقف على تاريخ واحدة من أغبى قصص المعارك في التاريخ، والتي إعتمد فيها الطرف الأول على غباء وسذاجة الطرف الآخر، والآن نترك التاريخ كي يتحدث ويروي لنا القصة وحقيقة ما حدث:

نطالع اليوم عبر هذه السطور واقعة من أغرب ما يكون حيث تسببت الخمر في معركة مختلفة من نوعها، فى 17 سبتمبر عام 1788 كانت معركة تدعى معركة "كارانسيبيس" Battle of Karánsebes حيث قام الجيش النمساوي بالهجوم على نفسه بالخطأ و قتل 10 آلاف جندي من نفسه، وكانت هذه المعركة كانت جيش الخلافة العثمانية والجيش النمساوي (كان من المفترض أن تكون كذلك) ، والذي حدث في تلك المعركة هو عندما قامت مجموعة من كشافة الجيش النمساوي بالتقدم لإستطلاع موقف الجيش العثماني .



وهم في طريقهم وجدوا تجمع للغجر حيث يباع الخمر فجلسوا وسكروا حتي الثمالة ، وبعد قليل جاءت مجموعة من المشاة

النمساويين للإنضمام لهم ويبدوا أنهم كانوا علي علم بهذا الموقع من قبل .



أصبح الكشافة في حالة سكر ورفضوا أن ينضم المشاة إليهم في شرب الخمرة وأتخذوا موقف دفاعي ، وفي خضم الجدال أطلق أحدهم طلقة ، فصاح المشاة أنهم يتعرضوا لهجوم عثماني! فأعتقدت فرقة الكشافة السكاري أن الأتراك جاؤوا من خلفهم ففروا إلي الكتائب المتقدمة من الجيش بهلع ، فظننت هذه الكتائب المتقدمة بدورهم أن العثمانيين هجموا! فبدأت كتائب المقدمة هذه في الهروب ناحية المعسكر الرئيسي .

وكان الجيش النمساوي به جنود كثيرون يتحدثون الألمانية والصربية والكرواتية ولغات عديدة وكان كل منهم يصيح بلغه

مختلفة ، فظن المعسكر أن هؤلاء هم الأتراك يعصفون بالمعسكر ففتحوا النيران ونشب القتال وبدأ الكل في قتل من بجواره وعمت الفوضي ، وما لبث أن هزم الجيش النمساوي نفسه

قتل في هذه المعركة أكثر من 10 آلاف وفر الباقون وكانت تلك المعركه هي أغبي معركة في التاريخ حيث إنتصر فيها



المسلمين دون أن يخوضوا أي حرب .

وكان الجيش النمساوي به جنود كثيرون يتحدثون الألمانية والصربية والكرواتية ولغات عديدة وكان كل منهم يصيح بلغه

مختلفة، فظن المعسكر أن هؤلاء هم المسلمين جاءوا ليعصفو بالمعسكر ففتحوا النيران ونشب القتال وبدأ الكل في القتال وعمت الفوضي ..

وما لبث أن هزم الجيش النمساوي نفسه فقتل في هذه المعركة أكثر من 10 آلاف وفر الباقون . .

وتأسيساً على ماسبق نجد أنه قد لايكون النصر في المعارك حليف الأقوى والأحدث وصاحب الجيش النظامي المحترف فقط، وإنما صاحب النصر الفعلي هو الأذكر، فلو سيطر الغباء لن تنفع هذه المزايا السابقة جمعاء.



- بقلم أ/أحمد الجمال
- باحث في التاريخ الحديث والمعاصر
- مؤرخ/كاتب صحفي
- مقدم التاريخ بالإذاعة المصرية.

التغيرات المناخية في المفهوم الإسلامي

إن الله سبحانه وتعالي يدعونا في القرآن الكريم إلى النظر في كتابين, كتابة المسطور وهو القرآن الكريم, وكتابه المنظور وهو الكون من حولنا, لقد خلق الله سبحانه هذا الكون علي نظام محكم , كل شيء فيه قائم علي التقدير الدقيق, والترابط والتكامل, قال تعالى{ إنا كل شيء خلقناه بقدر}(سورة القمر:49), وقال سبحانه { وكل شيء عنده بمقدار}(الرعد :8) وقال تعالى {وخلق كل شيء فقدره تقديرا}(الفرقان: 3)

والبيئة الطبيعية جزء من هذا الكون, ونصوص الشريعة توضح لنا بما لا يقبل الشك أن للإنسان يدا في تلويث أرضها وهوائها, وماءها, بل ويلقي بنفاياته وفضلاته في محيطاتها وبحارها وأنهارها ، ولو استقام الإنسان علي شرع الله ومنهجه لصلح أمر الإنسان وأمر بيئته, وتجنب كثيرا من المشكلات البيئية التي نعاني منها اليوم خاصة, بعد حدوث التغيرات المناخية نتيجة تصرف الإنسان غير المسئول تجاه مكونات البيئة(1).

إن العبث بمكونات البيئة أدى إلى التغيرات المناخية والتي أصحبت من أهم و أخطر المشكلات التي تواجه البشرية وتهدد الكرة الأرضية, حيث أدت التغيرات المناخية إلي حدوث الاحتباس الحرارى وهي ظاهرة خطيرة عالميا حيث تقوم عليها معظم النقاشات حاليا والبحث عن سبل مواجهاتها بعد أن تسببت في ارتفاع درجة حرارة الأرض وتسجيل بعض الدول لدرجات حرارة قياسية, والسبب في ذلك هو النشاط الصناعي في العقدين الأخرين وما يخلفه من غازات سامة تتكدس في الغلاف الجوي مؤثرة بشكل حاد على انتظام حرارة الأرض وتوازن الظواهر البيئية, إن حرق الوقود الأحفوري – الفحم والنفط والغاز – هو اكبر مساهم في تغير المناخ العالمي, إذ يمثل أكثر من 75% من

انبعاثات الغازات الدفينة وحوالى 90% من جميع انبعاثات ثاني أكسيد الكربون نظرًا لتواجدها في الغلاف الجوي للأرض.

ويقصد بالتغيرات المناخية هو اضطراب في مناخ الأرض مع ارتفاع في درجة حرارة الكوكب، وتغير كبير في طبيعة الظواهر الطبيعية مع نزعة إلى العنف، وتدهور مستمر للغطاء النباتي وللتنوع البيئي.(2)

وظاهرة التغيرات المناخية من الظواهر الخطيرة التي أصبحت تؤرق العالم في هذه الأيام , وهي شغل العلماء الشاغل ولا زال العلماء في عصرنا يبحثون عن الحلول المناسبة للحد منها.

التغيرات المناخية وتأثيرها علي البيئة:

إن درجة حرارة العالم ترتفع حاليا بشكل مفزع وأسرع من أي وقت مضى في التاريخ المسجل, بسبب التغيرات المناخية ,وبمرور الوقت تؤدي درجات الحرارة المرتفعة إلى تَغيُّرات في أنماط الطقس واضطرابات في توازن الطبيعة المعتاد, وهو ما يشكل مخاطر عديدة على البشر وجميع أشكال الحياة الأخرى على كوكب الأرض .

-مثل ارتفاع تركيزات الغازات الدفيئة, وقد كان العقد الماضي، 2011-2020، الأكثر دفئًا على الإطلاق, وكذلك عام 2020 من أكثر الأعوام حرًا على الإطلاق , ومنذ الثمانينيات كان كل عقدٍ أكثر دفئًا من العقد السابق.

-وتشهد جميع مناطق اليابسة تقريبًا المزيد من الأيام الحارة وموجات الحر, وتزيد درجات الحرارة المرتفعة من الأمراض المرتبطة بالحرارة, وتجعل العمل في الهواء الطلق أكثر صعوبةً, وتشتعل حرائق الغابات بسهولة أكبر وتنتشر بسرعة أكبر عندما تكون الأجواء أكثر سخونةً.

-ومع ارتفاع درجات الحرارة، يتبخر المزيد من النداوة، مما يؤدي إلى تفاقم هطول الأمطار الغزيرة والفيضانات، ويتسبب بالتالي في المزيد من العواصف المدمرة وقد أصبحت أكثر حدةً وتكرارًا في العديد من المناطق, كما يتأثر تواتر ونطاق العواصف الاستوائية بارتفاع درجة حرارة المحيطات، إذ تشتد الأعاصير والزوابع والأعاصير الاستوائية بوجود المياه الدافئة على سطح المحيط، وغالبًا ما تدمر مثل هذه العواصف المنازل والمجتمعات، وتتسبب في وفيات وخسائر اقتصادية فادحة تكلف مليارات الدولارات.

-وكذلك يؤدي تغير المناخ إلى تغيير توفر المياه، مما يجعلها أكثر ندرةً في المزيد من المناطق, ويؤدي الاحترار العالمي إلى تفاقم نقص المياه في المناطق الفقيرة بالمياه، كما يؤدي إلى زيادة مخاطر الجفاف فيما يخص الزراعة، ويؤثر بالتالي على المحاصيل(3).

-تمتص المحيطات معظم حرارة الاحتباس الحراري، وقد ازداد معدل ارتفاع درجة حرارة المحيطات بشدة خلال العقدين الماضيين، عبر جميع أعماق المحيطات، ومع ارتفاع درجة حرارة المحيطات، يزداد حجمها مع تمدد المياه بسبب ارتفاع درجة حرارتها، كما يتسبب ذوبان الصفائح الجليدية في ارتفاع مستويات سطح البحار، مما يهدد المجتمعات الساحلية والجُزُرية، وبالإضافة إلى ذلك تمتص المحيطات غاز ثاني أكسيد الكربون، وتمنعها من الانطلاق نحو الغلاف الجوي، لكن زيادة نسبة ثاني أكسيد الكربون تجعل المحيطات أكثر حمضيةً، مما يعرض الحياة البحرية والشعاب المرجانية للمخاطر.

-ويشكل تغير المناخ مخاطر على بقاء الأنواع على الأرض وفي المحيطات، وتزداد هذه المخاطر مع ارتفاع درجات الحرارة، إذ يفقد العالمُ الأنواعَ بمعدلٍ أكبر 1000 مرة من أي وقتٍ مضى في التاريخ البشري المدون, وهناك مليون نوع من الكائنات الحية معرضون لخطر الانقراض خلال العقود القليلة القادمة.

-وتُعدُّ التغيرات في المناخ وزيادة الظواهر الجوية المتطرفة من بين الأسباب الكامنة وراء الارتفاع العالمي في معدلات الجوع وسوء التغذية.

إذ قد يتم تدمير مصايد الأسماك والمحاصيل والماشية أو تصبح أقل إنتاجيةً ومع ازدياد حمضية المحيطات، أصبحت الموارد البحرية التي تغذي مليارات البشر معرضةً للخطر.

-إن تغير المناخ هو أكبر تهديدٍ صحيٍ يواجه البشرية تضر تأثيرات المناخ بالفعل بالصحة، من خلال تلوث الهواء، والأمراض، والظواهر الجوية الشديدة، والتهجير القسري، والضغوط على الصحة العقلية، وزيادة الجوع وسوء التغذية في الأماكن التي لا يستطيع الناس فيها زراعة المحاصيل أو العثور على غذاءٍ كافٍ وفي كل عام تودي العوامل البيئية بحياة ما يقارب 13 مليون شخص وتؤدي أنماط الطقس المتغيرة إلى انتشار الأمراض.

ويزيد تغير المناخ من العوامل التي تضع الناس وتبقيهم في حالة فقر وقد تجرف الفيضانات الأحياء الفقيرة في المدن وتدمر المنازل وسُبُل العيش ويمكن أن تجعل الحرارةُ العملَ في الوظائف الخارجية صعبًا وقد تؤثر ندرةُ المياه على المحاصيل على مدى العقد الماضي (2010-2019)، أدت الأحداث المتعلقة بالطقس إلى نزوح ما يقدر بنحو 23.1 مليون شخص في المتوسط كل عام، مما ترك الكثيرين عرضةً للفقر بشكلٍ أكبر ويأتي معظم اللاجئين من البلدان الأكثر ضعفاً والأقل استعداداً للتكيف مع آثار تغير المناخ .

<u>كيف نواجه التغيرات المناخية</u>

إن اهتمام العالم اليوم لمواجهة التغيرات المناخية والحفاظ علي التوازن البيئي خطوة مهمة وضرورية, ومع عقد الأمم المتحدة مؤتمر قمة المناخ cop 27 والمعني بالتغيرات المناخية والذي عقد في مصر بمدينة شرم الشيح في نوفمبر الماضي, ويهدف المؤتمر إلى تقليل المخاطر التي يتعرض لها كوكب الأرض وذلك للحد من التغيرات المناخية بتقليل استخدام الطاقة التقليدية, وقد نصت اتفاقية العام الماضي والتي عقدت في

غلاسكو بالمملكة المتحدة صراحة علي تقليل استخدام الفحم والذي يتسبب في زيادة الانبعاثات الغازية في الغلاف الجوي, وتوفير الدول الصناعية الكبرى الدعم المالي للدول النامية ومن الاقتراحات أيضا:

- العمل علي إحداث التوازن البيئي والمقصود بالتوازن هو حالة الاستقرار الطبيعي لمكونات النظام البيئي وتفاعلاتها (4), ويتشكل النظام البيئي من الإنسان والحيوان والنباتات والكائنات الدقيقة, ولكل من هذه المخلوقات دورها في المحافظة علي البيئة ,

.

-وكذلك الاهتمام بزراعة الأشجار واستغلال الأرض فإن ذلك يؤدي إلى حماية البيئة والمحافظة عليها فاخضرار الأرض بأشجارها يعمل علي إعادة التوازن ومنع التغيرات المناخية من خلال الحد من انبعاثات ثاني أكسيد الكربون في الجو وذلك من خلال زراعة الغابات الخضراء. (5)

-و الاهتمام بموارد المياه والمحافظة عليها فالماء هو أساس الحياة, ولذلك حثنا الشرع الحنيف علي منع الإسراف في الماء وحمايته من التلوث, قال النبي صلى الله عليه وسلم[لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجرى ثم يغتسل فيه]. (6)

ومر النبي صلي الله عليه وسلم بسعد بن أبي وقاص وهو يتوضأ فقال له : " ما هذا السرف " فقال : أفي الوضوء إسراف ، قال "نعم وإن كنت على نهر جار] (7).

-وأيضا المحافظة علي الهواء من التلوث , فالهواء من العناصر الأساسية في حياة الكائن الحي ولكن للأسف تعرض للتلوث بفعل الإنسان حتى إن بعض ملوثات الهواء تكون سامة.

-ونشر ثقافة التغيرات المناخية بين فئات المجتمع, وجعلها إلزاميا بين الطلاب في مراحل التعليم المختلفة لزيادة الوعي لدى الشباب , ونشر الوعي وتوضيح خطورة التغيرات المناخية علي الإنسان وجميع المخلوقات علي كوكب الأرض .

- حث المؤسسات الأممية علي تمويل برامج بالتعاون مع المجتمعات المحلية من أجل تحضير السكان للاستجابة للكوارث الطبيعية , لتخزين مياه

الأمطار وتأهيل الأراضي الزراعية والتشجير والحد من انبعاث الغازات الدفيئة المسببة للاحتباس الحراري.(8)

إن سعى العالم لمواجهة هذه الظاهرة خطوة مهمة ومقدرة اتمني أن نجد لها واقعا ملموسا, لأنه بغير التكامل والتعاون في هذا الشأن قد تحث كوارث تهدد كوكب الأرض.

المراجع

- ✓ -1حماية الشريعة للبيئة الطبيعية, د. هناء فهمي أحمد، ص144
- ✓ -2موقع الأمم المتحدة
- ✓ -3المصدر السابق
- ✓ -4جمعية البيئة الأردنية,1993
- ✓ -5حماية البيئة ومنع التغيرات المناخية في الفقه , محمد خلف بني سلامه
- ✓ -6رواه مسلم
- ✓ -7رواه أحمد
- ✓ -8حماية البيئة ومنع التغيرات المناخية، مرجع سابق



- عصام جمعة
- كاتب وباحث

أركان الإيمان(الجزء الثاني)

ما زال الحديث موصولاً حول اركان الايمان وتكمل ما بدأناه واقول بعد الحمد والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الركن الثاني:

- ✓ الإيمان بالملائكة

والإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان، بعد الإيمان بالله تعالى، وكلاهما من الإيمان بالغيب.

قال تعالى: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ..." البقرة:177

وقال تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ" البقرة: 285

وقال تعالى: وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا" النساء: 136

فمن ينكر وجود الملائكة فقد كَفَر.

وقال تعالى: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ" البقرة: 98]

والمقصود بالإيمان بهم: التصديق بوجودهم، وأنهم كما وصفهم الله تعالى عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

قال تعالى: لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ" النساء:172

وقال تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ" الأنبياء: 26-27

وقال تعالى فيهم: لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" التحريم: 6

وقدم الإيمان بالملائكة على الإيمان بالكتب والرسل

نظرا للترتيب الواقع، لأنه سبحانه وتعالى أرسل الملك بالكتاب إلى الرسول، وليس فيه متمسك لمن فضل الملك على الرسول.

مم خُلقت الملائكة ؟

الملائكة مخلوقات عظيمة، خلقها الله تعالى من النور .

فقد أخرج مسلم :عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ .

ومما ورد في صفاتهم :

(1) أنهم أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع:

قال تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [فاطر: 1]

وأخرج الشيخان : عن أبي إِسْحَاقَ الشَّيْبَانِيِّ قَالَ:

سَأَلْتُ زِرَّ بْنَ حُبَيْشٍ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى" [النجم: 10]

قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ مَسْعُودٍ: أَنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ ، لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ .

(2) أنهم يتمون صفوفهم الأول:

أخرج مسلم : عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكُمْ رَافِعِي أَيْدِيكُمْ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ خَيْلٍ شُمْسٍ؟ اسْكُنُوا فِي الصَّلَاةِ قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَرَآنَا حَلَقًا فَقَالَ: مَالِي أَرَاكُمْ عِزِينَ

قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ:

أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ:

يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ (3) الحياء:

أخرج مسلم : عن عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي، كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ، أَوْ سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ،

فَأَذِنَ لَهُ، وَهُوَ كَذَلِكَ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَسَوَّى ثِيَابَهُ .

قَالَ مُحَمَّدٌ وَلَا أَقُولُ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ فَقَالَ: أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ .

(4) تأذيهم مما يتأذى منه بنو آدم:

أخرج مسلم :

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ الثُّومِ وقَالَ مَرَّةً: مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ .

(5) تنزههم عن الأعراض البشرية:

فلا يأكلون، ولا يشربون، ولا يتغوطون، ولا يبولون، ولا يتزوجون، ولا يفترون، ولا يتعبون، ولا يسأمون.

قال تعالى:

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ .

الأنبياء: 19-20

وقال تعالى:

فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ فصلت: 38

(5) ليسوا ذكورا وليسوا إناثا:

نفى الله تعالى أنوثتهم ويثبت ذكوريتهم فهم ليسوا ذكورا وليسوا إناثا.

قال تعالى:

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ .

الزخرف: 19

وقال تعالى:

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا [الإسراء:40]

وقال تعالى:

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ، أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ .

الصافات:149-150]

مهام ووظائف الملائكة :

فطر الله الملائكة على السمع والطاعة، والعبادة، والقيام بما أمروا به، خير قيام.

قال تعالى: "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ" الأنبياء:26-28

وقد أخبرنا القرآن عن مهام بعضهم وكذلك السنة المشرفة ومن ذلك: ملك الوحي :

اختص الله تعالى جبريل عليه السلام بالنزول بالوحي على الأنبياء والرسل، فقال تعالى: "قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ"

[البقرة:97]

والوحي هو الروح للأفراد والأمم، فلا حياة لهم بغيره، لذلك يطلق القرآن اسم "الروح" على جبريل عليه السلام .

فقال تعالى: "قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ" [النحل:102]

وقال تعالى: "وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ" [الشعراء: 192-195]

وقال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ [القدر:1-4]

ووصفه الله تعالى بالقوة والأمانة فقال: "إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ" [التكوير:19-21]

ملك المطر والنبات:

وقد اختص الله تعالى بذلك ميكائيل عليه السلام ، فيقوم بتصريف المطر حيث أمره الله تعالى.

قال تعالى: "مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ" [البقرة: 98].

ملك الجبال:

وقد جاء ذكره في حديث عودة النبي صلى الله عليه وسلم من الطايف.

أخرج الشيخان عن عُرْوَةَ :

أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا .

الملك الموكل بالرحم:

أخرج الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ، قَالَ: إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ .

وأخرج الشيخان : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَكَّلَ اللَّهُ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ، أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ، أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهَا، قَالَ: أَيْ رَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَمَا الرِّزْقُ، فَمَا الأَجَلُ، فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ"

الموكلون بحفظ الإنسان:

وهم المكلفون بحماية الإنسان من الجن والشياطين والآفات فيما لم يقدره الله عليه، فإذا جاء قدر الله خلوا بينه وبينه.

قال تعالى:"لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ " [الرعد:11]

قال ابن كثير:

لِلْعَبْدِ مَلَائِكَةٌ يَتَعَاقَبُونَ عَلَيْهِ، حَرَس بِاللَّيْلِ وحَرَس بِالنَّهَارِ، يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْأَسْوَاءِ وَالْحَادِثَاتِ، كَمَا يَتَعَاقَبُ مَلَائِكَةٌ آخَرُونَ لِحِفْظِ الْأَعْمَالِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، فَاثْنَانِ عَنِ الْيَمِينِ وعَنِ الشِّمَالِ يَكْتُبَانِ الْأَعْمَالَ، صَاحِبُ الْيَمِينِ يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ، وَصَاحِبُ الشِّمَالِ يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ، وَمَلَكَانِ آخَرَانِ يَحْفَظَانِهِ وَيَحْرُسَانِهِ، وَاحِدًا مِنْ وَرَائِهِ وَآخِرَ مَنْ قُدَّامِهِ، فَهُوَ بَيْنُ أَرْبَعَةِ أَمْلَاكٍ بِالنَّهَارِ، وَأَرْبَعَةٍ آخَرِينَ بِاللَّيْلِ بَدَلًا حَافِظَانِ وَكَاتِبَانِ .

قَالَ عِكْرِمة عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:

{يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}

قَالَ: "مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفِهِ، فَإِذَا جَاءَ قَدَرُ اللَّهِ خَلَّوا عَنْهُ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ:

مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا لَهُ مَلَك مُوَكَّلٌ، يَحْفَظُهُ فِي نَوْمِهِ وَيَقَظَتِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْهَوَامِّ، فَمَا مِنْهَا شَيْءٌ يَأْتِيهِ يُرِيدُهُ إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ: وَرَاءَكَ إِلَّا شَيْءٌ يَأْذَنُ اللَّهُ فِيهِ فَيُصِيبُهُ"

الموكلون بكتابة أعمال بني آدم:

قال تعالى:"إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ " [ق: 17-18]

وقال تعالى: "وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَامًا كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ" [الانفطار:10-12]

وأخرج الشيخان :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الفَجْرِ وَصَلاَةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ"

الملائكة الذين يكونون على أبواب المساجد يوم الجمعة:

أخرج البخاري :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ، كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ المَسْجِدِ المَلاَئِكَةُ، يَكْتُبُونَ الأَوَّلَ فَالأَوَّلَ، فَإِذَا جَلَسَ الإِمَامُ طَوَوْا الصُّحُفَ، وَجَاءُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ .

السياحون في الأرض:

أخرج النسائي بسند صحيح، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ .

وأخرج الشيخان :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ لِلَّهِ مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ .

قَالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ: "فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ، مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ" قَالَ: "فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟" قَالَ: "فَيَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ؟ "قَالَ: "فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ "قَالَ: "يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا" قَالَ: "يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ "قَالَ: «يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ» قَالَ: "يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟" قَالَ: "يَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا " قَالَ: "يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ " قَالَ:

"يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟" قَالَ: "يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ" قَالَ: "يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟" قَالَ: "يَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا" قَالَ: "يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟" قَالَ: "يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً" قَالَ: "فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ " قَالَ: "يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلاَئِكَةِ: فِيهِمْ فُلاَنٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ"

ملائكة الدعاء:

وهم موكلون بالتأمين على دعاء من دعا لأخيه بظهر الغيب، ثم الدعاء له بالمثل.

أخرج مسلم، عَنْ صَفْوَانَ وَهُوَ ابْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ صَفْوَانَ، وَكَانَتْ تَحْتَهُ الدَّرْدَاءُ، قَالَ: قَدِمْتُ الشَّامَ، فَأَتَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فِي مَنْزِلِهِ، فَلَمْ أَجِدْهُ وَوَجَدْتُ أُمَّ الدَّرْدَاءِ، فَقَالَتْ: أَتُرِيدُ الْحَجَّ الْعَامَ، فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَتْ: فَادْعُ اللهَ لَنَا بِخَيْرٍ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: "دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ" .

ملك الموت:

والمشهو أن اسمه "عِزْرَائِيل"، ولكن لم يرد هذا الاسم في القرآن ولا في صحيح السنة، فلعله من الإسرائليات، فإن القرآن والسنة يطلقان عليه "ملك الموت".

وقد اختصه الله بقبض الأرواح، وجعل له أعوانا من الملائكة.

قال تعالى: حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ" [الأنعام:61]

وقال تعالى: " قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ " [السجدة: 11]

وقال تعالى: "وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ" [الأنفال:50]

وقال تعالى: "الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" [النحل:28]

وقال تعالى: "الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" [النحل:32]

الملائكة الموكلون بالعروج بأرواح العباد بعد الموت:

أخرج مسلم :

عن حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ حَدَّثَنَا بُدَيْلٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «إِذَا خَرَجَتْ رُوحُ الْمُؤْمِنِ تَلَقَّاهَا مَلَكَانِ يُصْعِدَانِهَا قَالَ حَمَّادٌ : فَذَكَرَ مِنْ طِيبِ رِيحِهَا وَذَكَرَ الْمِسْكَ قَالَ: "وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْكِ وَعَلَى جَسَدٍ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ، فَيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَقُولُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ"، قَالَ: "وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ قَالَ حَمَّادٌ وَذَكَرَ مِنْ نَتْنِهَا وَذَكَرَ لَعْنًا وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ رُوحٌ: خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ. قَالَ فَيُقَالُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ .

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:

فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَيْطَةً كَانَتْ عَلَيْهِ، عَلَى أَنْفِهِ، هَكَذَا"

منكر ونكير:

وهما الملكان بسؤال العبد في قبره عن ربه ودينه والرجل الذي بعث فيه.

أخرج الترمذي وحسنه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ أَوْ قَالَ:

أَحَدُكُمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ، نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلأَرْضِ: التَئِمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ .

ملك النفخ في الصور:

واختص الله بذلك إسرافيل عليه السلام.

والصور هو البوق الذي ينفخ فيه إسرافيل فقد أخرج الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَا الصُّورُ؟ قَالَ: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ» وإسرافيل ينفخ في الصور نفختين:

- النفخة الأولى:

نفخة الصعق لفناء الخلق، وتسمى أيضا نفخة الفزع.

قال تعالى: "فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ، وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً، فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ" [الحاقة: 13-15]

وقال تعالى: "وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ" [النمل:87]

وأخرج الترمذي وحسنه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ» فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُمْ: "قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا.

- النفخة الثانية:

وهي نفخة البعث وبعدها تعود الحياة إلى الأموات.

قال تعالى : "وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ، يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ، إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ" [ق: 41-43]

وقد ذكر القرآن النفختين معا فقال تعالى: "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ " [الزمر:68]

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يصلي ذكر في دعائه جبريل وميكائيل وإسرافيل.

أخرج مسلم عن أبي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: «اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» خزنة الجنة:

وهم جماعة من الملائكة، وعلى رأسهم رضوان عليه السلام: قال تعالى:

"وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين"

[الزمر:73]

قال تعالى:

"جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ"

[الرعد:23-24]

وأخرج مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ".

خزنة النار:

وهم جماعة من الملائكة وعلى رأسهم مالك عليه السلام.

قال تعالى:

"وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا ربك"

[الزخرف:77]

قال تعالى:

"وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا"

[الزمر:71]

وقال تعالى:

"وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ، لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ، لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ، عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ، وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ..." [المدثر:27-31]

وقال تعالى: "فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ" [العلق:17-18]

حملة العرش:

وهؤلاء اختصهم الله تعالى بحمل العرش فقال تعالى: "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" [غافر: 7-9]

وقال تعالى:

"وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ" [الحاقة:17]

وأخرج أبو داود بسند صحيح

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ»



- بقلم فضيلة الشيخ أحمد علي تركي
- مدرس القرآن الكريم بالأزهر الشريف

من الدلائل العقلية على صدق النبي صلى الله عليه وسلم

الحلقة الرابعة (مكانته ومنزلته في رسالته)

إذا كانت أخلاق محمد -صلى الله عليه وسلم- وسيرته من براهين صدقه= فكذلك المنزلة التي يتبوأها محمد -صلى الله عليه وسلم- في الإسلام هي من دلائل صدقه.

وقد تقدم في المقالات السابقة بيان أن الكاذب في ادعاء النبوة لا يخلو أن يكون ادعاؤه تقف وراءه إما أغراض مالية أو أغراض تتعلق بالمجد الشخصي الذي يريد الكذاب أن يبنيه لنفسه متخذاً دعوى النبوة كذباً سُلماً لذلك.

وأشرنا في تلكم المقالات كذلك إلى أنّ واقع النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يساعد خصومَه على رميه بتلك التهمة (ادّعاء النبوة كذباً لأجل مجدٍ شخصي أو غرضٍ ماليٍّ).

وفي هذه المقالة نبين كيف أن نفس منزلة محمد -صلوات الله عليه- ومكانته في الكتاب الذي قال محمد -–صلى الله عليه وسلم- للناس إنّ الله تعالى قد أرسله به، وفيما ذكره محمد عن نفسه= لهي خير شاهد على صدق محمد – صلوات الله عليه – في دعوى النبوة وعلى براءته من الكذب فيها.

وآية ذلك أن مدعي النبوة كذباً إنما يعينه جاهه الشخصي ومجده الخاص الذي من أجله اخترع كذبة النبوة، فلا أقل أن تكون منزلته ومكانته في دعوته المخترعة تلك قريباً من مكانة الإله، وما دام ذلكم الشخص الكاذب قد نجح في إقناع الناس من حوله أنه رسولٌ من عند الله، وأنه يأتيه وحي الله، وأنه مؤيَّد بالمعجزات، فما الذي يحجزه- والافتراض أنه كاذب في كل ذلك- أن يرتقي في دعواه بأنه يدعي أنه هو الإله أو ابن الإله أو أنّ فيه شيئاً من صفات الإله أو أن الإله خوّله في مصائر الناس أو أوكل إليه تصريف شئون الكون أو غير ذلك من النعوت التي

ترفع صاحبها عن مرتبة البشرية والإنسانية إلى رتبة الإلهية؟!

وإذا كان ذلكم الشخص المدعي للنبوة كذباً قد نجح - مستخدماً الخوارق من السحر والشعوذة ونحوهما- في إقناع الناس أن تلك الخوارق هي معجزات له من الله وأنها براهين نبوته، فلمَ لم يجعل نفس تلك الخوارق من الشعوذات والسحر، التي سماها معجزاتٍ، دليلاً على إلهيته؟! فالأمر واحدٌ والباب مطردٌ، فتكليم الجمادات له أو تكثير الطعام القليل أو نبع الماء من بين الأصابع أو الإخبار بما نفوس الآخرين وعما يكون في الغد= لهو صالحٌ كدليلٍ على الألوهية كما كان صالحاً كدليلٍ على النبوة، ولا فرق بينهما، إذا افترضنا أن فاعل ذلك كاذبٌ في الحالين، فإنّ من خُدعوا بتلك الشعوذات والسحر وصدّقوا صاحبها على أنه نبي= لهم مستعدون كذلك للانخداع بكونه إلهاً أو فيه بعض صفات الإله.

فإذا أضفنا إلى ذلك البيئة التي نشأ فيها محمد -صلى الله عليه وسلم- وحال العرب الذين وجّه إليهم دعوته، حيث كانوا أقواماً وثنيين يعبدون الأصنام والأحجار ويجعلون تلك الأصنام بمثابة الشفعاء المُقرّبين عند الله الذين تؤدي عبادتهم والتقرب إليهم إلى الوصول إلى مرضاة الله الخالق للكون. فإن بيئةً كهذه ما أيسر أن تُصدق في إنسانٍ صاحب خوارق أنّ له طبيعةً إلهية أو أنّ له حظوةً عند الإله خوّله بسببها في تصريف شئون الكون، وأنه صار يملك الضر والنفع، على نحو ما كان يعتقد أولئك العرب في الأوثان والأصنام وأنها تضر وتنفع لما حباها به الإله وأوكله لها من تصريف الأمور.

ففي تلك البيئة المذكورة لا تكون مهمة رجلٍ معه خوارق يدعي أنها براهين على شِركته في الألوهية واستحقاقه للعبادة= بأصعب ولا أعسر من مهمة رجلٍ معه تلك الخوارق ويدعي إنها معجزات وبراهين على صدقه نبوته.

ولا يعترضن معترض بأن تصديق الناس بادعاء الألوهية= أبعد من تصديقهم بادعاء النبوة، فليس المقصود ولا المطلوب هو ادعاء الربوبية أو الألوهية العامة التي تنفر من تصديقها الطبائع، بل يكفي في ذلك ادعاء بعض صفاتها أو الصلة مع الإله

الأعظم، على ما كانت تقرره العرب لآلهتها المتخذة أو تدعيه النصارى في عيسى ابن مريم عليه السلام، كما يكفي فيه أيضاً ادعاء أمورٍ أو المطالبةُ بحقوقٍ يحصل بها التأليه العملي وإن لم يُصرّح بالتأليه النظري، كما هو الأمر في حال الكهان والأحبار والرهبان الذين يغفرون الذنوب ويُعطون الصكوك بها ويُقطِعون أفنان الجنة، ويحرّمون ويحلّون كما يشاءون.

هكذا يملي المنطق (البراجماتي) النفعي فيما ينبغي أن يفعل الكذاب المدعي في بيئة تساعده على تصديقه فيما يدعي، وأنّ عليه أن يستثمر تلك البيئة في رفع نفسه إلى أقصى درجة يستطيع خداع الناس بوصوله إليها وحيازته لها، وأن يستغل كل فرصةٍ ويستثمر كل حدثٍ لتأكيد تلك المنزلة، وأن يفتح كل سبيلٍ أمام الأتباع لإيصاله إلى أبعد نقطة في تعظيم شأنه ورفع قدره، لا سيما في ذلكم الوقت الذي يتتابع الناس على التصديق به ويزداد مؤيده وينحسر مُكذبوه ومُعادوه.

بينما إذا نظرنا إلى حال محمد -صلى الله عليه وسلم- والمكانة والمنزلة التي يتبوأها في الدعوة التي دعا الناس، سواء ما جاء من ذلك في القرآن الكريم أو في أحاديثه النبي صلى الله عليه وسلم= نجد كل ما يعارض ذلك ويُباعد منه، بل ويقطع كل الطرق أمام حصوله، فأما القرآن فآياته متضافرة على التنصيص على بشرية محمد – صلى الله عليه وسلم- وأنه ذو طبيعة بشرية لا إلهية ولا ملائكية ولا جنيّة، وأنه ليس إلهاً ولا ابناً للإله ولا متحداً بالإله ولا شريكاً للإله في الألوهية والربوبية، {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ } [الكهف: 110].

وأنه لا يملك لغيره نفعاً ولا ضراً { قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (21) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (22) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ} [الجن: 21 - 23]

بل ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188)} [الأعراف: 188]

وأنه لا يعلم من الغيب إلا ما أخبره به الله عن طريق الوحي {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ} [الأنعام: 50]

وأن وظيفته ومهمته في الحياة ليست هي محاسبة الناس وإدخالهم الجنة أو النار، بل وظيفته هي وظيفة مَن سبقوه من المرسلين، إبلاغ رسالة الله تعالى إلى خلقه فحسب { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ } [آل عمران: 144]

وأنه ليس إلا نذير من عند الله للناس { إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23)} [فاطر: 23]، {إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) } [الشعراء: 115، 116]، {مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (46)} [سبأ: 46]

وأنه لو فُرض أنه لم يكن هو الرسول المبعوث إلى أهل مكة لكان غيره سيقوم بمهمته{ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [يونس: 16]، (ففي بعض القراءات «ولأدْرَاكم» ، بلام داخلة على «أدْرَاكم»، قال العلماء: والمعنى: ولأعْلَمكم به من غير وساطتي: إمَّا بواسطة ملكٍ، أو رسولٍ غيري من البشر، ولكنَّه خَصَّنِي بهذه الفضيلةِ)

وأنه عرضةٌ للموت أو القتل كسائر البشر، وأنّ من يربط إيمانه بالله تعالى بحياة محمد فقط فقد خسرت صفقته {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144) } [آل عمران: 144، 145]

وبالجملة فتتبع ذلك في القرآن تصريحاً ومنطوقاً أو إيماء ومفهوماً يتعذر، وما المذكور آنفاً إلا أمثلة من المنطوق الصريح، فكيف إذا أضيف إلى ذلك قضية العتاب القرآني لمحمد – صلى الله عليه وسلم – وهي خير دليل وأصدق على ما نحن بصدده هنا،

فإن الكذاب الدعيّ إذا ألف كلاماً من جهة نفسه وادعى أنه وحي إليه من عند الله، فمن الجنون أن يجعل في ذلك الكتاب الذي اخترعه وافتراه ما فيه ملامة وعتاب له وما يسميه خصومه اليوم بـ (التبوبيخ)، فهل هناك كذاب انتهازي له حظ من العقل والفطنة يسجل على نفسه إعراضه عن واحدٍ من أتباعه الفقراء لانشغاله بدعوة بعض السادة القرشيين؟! {عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11)} [عبس: 1 - 11]

وهل هناك كذاب انتهازي عاقل يسجل على نفسه هذه الخواطر القلبية {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ } [الأحزاب: 37] ، ذلك التسجيل التي يكاد به أتباع محمد – صلى الله عليه وسلم- ويعتبره خصومه من الشبهات المثارة حوله وحول الإسلام؟!

وهل هناك كذاب انتهازي عاقل يأخذ قرار بقبول فداء الأسرى في بدر وعدم قتلهم، ثم هو هو يختلق قرآنا يلوم فيه نفسه ومن وافقه على أخذ الفداء وأنه كاد أن يلحقهم عذاب عظيم بسبب هذا القرار { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (68)} [الأنفال: 67، 68]

وهل يجوز في حكم العقل أن يكون هناك كذاب انتهازي عاقل يقتل أعداؤه عمّه ويمثّلون بجثته فيقسم على الانتقام منهم، ثم في فورة الغضب هذه يختلق قرآناً من عند نفسه يقول فيه زاجراً لنفسه ولأتباعه {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126)} [النحل: 126]؟!

وهل يقبل العقل فرضية أن كذاباً مدعياً يعتدي عليه أعداؤه في معركة كان النصر حليفهم فيها، فيصيبونه في رأسه وأسنانه، فيقول أمام أصحابه- متأثراً بما أصابه: إنه لا يمكن أن يفلح أولئك الأعداء بعدما فعلوا بنبيهم هذا الذي فعلوه، ثم هذا الكذاب نفسه يخترع كلاماً فينزله على نفسه تعليقاً على كلمته تلك، ويجيء في الكلام المخترع { لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (128)} [آل عمران: 128]؟!

هل يساعد المنطق على تسويغ شيء من تلك الأشياء؟! وهل يمكن أن يكون فاعل تلك المواقف والمعلق عليها بتلك التعليقات شخص واحد له غرض واحد ويسعى لهدف واحد، ويفكر بعقل واحد؟!

وأما ما جاء على لسان محمد صلى الله عليه وسلم – فهو تأكيد لما قرره القرآن في شأنه في جميع ذلك، وأنه لم يخرج عن البشرية، وليس به شيء من خصائص الألوهية والربوبية، وأنه دوره منحصر في تبليغ رسالة الله تعالى كحال مَن سبقه من الرسل والأنبياء، وأنه لا يملك مفاتيح الجنة والنار، ولا يملك خزائن السماوات والأرض، وليس له من علم الغيب إلا ما أطلعه عليه من ذلك، وأن تلك الخوارق والمعجزات التي تقع على يديه ليست من قِبل نفسه، وإنما أمده الله بها برهاناً على صدقه فيما يدعيه من أنه رسول الله ونبيه وأنه يأتيه الوحي من عند الله تعالى بالقرآن وغيره.

فها هو في أول دعوته يؤكد لعشيرته وأقاربه أنه لا يملك من أمر الجنة والنار شيئاً وأن على كل واحد منهم أن يعمل صالحاً إن كان طامعاً في النجاة من النار ولا يعوّل على قرابته من محمد وصلته به؛ فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه {وأنذر عشيرتك الأقربين} [الشعراء: 214]: " يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أغني عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا ".

وها هو يؤكد أن علمه بشؤون الدنيا وأمورها- مما لم ينزل عليه بشأنه وحيّ- هو علم بشري لا إلهي، فنراه يبدي رأيه لأصحابه ذات مرة في عدم فائدة تلقيح النخيل، فلما تركوا التلقيح ولم تنتج النخل نفس إنتاجها مع التلقيح، قعّد لهم قاعدة عامة في فيما يتعلق بأمور الدنيا (أنتم أعلم بشؤون دنياكم)، ونراه يحذر الناس عند المخاصمة والاحتكام إليه أن يأخذوا من الآخرين حقاً ليس من حقهم معتمدين على قضائه بذلك، فهو – كما يخبر عن نفسه- يقضي بحسب الظاهر أمامه وبحسب ما يدلي به كل طرف من الأدلة، وليس له اطلاع على الغيب وعلى ما هو الحق في نفس الأمر.

كما نراه -صلوات الله وسلامه- يقطع كل الطرق أمام تعظيمه والغلو في شأنه والمبالغة في تفخيمه وتمجيده، يستعمل في ذلك الطرق العملية والنظرية.

فأما العملية فإنه كان يمنع أصحابه من القيام له عند قدومه عليهم أو الوقوف حوله وهو جالس، ويمنعهم من تحيته بالسجود له على نحو ما كانت تفعل الأمم المجاورة مع ملوكها، وكان يجلس بينهم كواحدٍ منهم بحيث يحتاج الغريب إذا دخل مجلسه أن يسألهم (أيُّكم محمد)؟!

ولما مات ولده الرضيع واتفق حدوث كسوف الشمس مع تلك الوفاة، وقال بعض الناس إن كسوف الشمس إنما بمثابة الحداد منها على موت ابن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلم نجد محمداً -صلوات الله عليه- بادر إلى استغلال هذه الحادثة لتفخيم شأنه وربط الظواهر الكونية به أو بنسله، بل إنه لم يلتزم الصمت والسكوت تجاه هذا الربط الخاطئ الذي ظنه الناس، فطفق يبين لهم عدم العلاقة بين الكسوف وموت ولده، قائلا: "إن الشمسَ والقمرَ لا ينكسِفَانِ لموتِ أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتانِ مِنْ آياتِ الله عز وجلَ يُخوّفُ بهما عباده"

كما نراه يأمر مَن قال له مخاطباً: " ما شاء الله وشئتَ"، يأمره بأن يقول "ما شاء الله وحده" مستنكراً

هذا اللفظ بقوله: " أجعلتني لله نداً"

ونراه يقف في وجه مادحيه وقفة صلبة، فعن عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: (انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيناه فسلمنا عليه، فقلنا: يا محمد، أنت سيدنا وابن سيدنا، فقال: " السيد الله تبارك وتعالى "، فقلنا: وخيرنا وابن خيرنا، وأنت ولينا وأعظمنا طَوْلاً، وأنت أفضلنا علينا فضلاً، وأنت الجفنة الغراء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" يا أيها الناس، قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله - عز وجل"

وأقول أنا: والله ما كان لكذاب مدّعٍ قط أن تطاوعه نفسه على هذا التواضع الذي لا مبرر له إلا كمال أخلاق صاحبه، وسمو مذهبه.

وأما النظرية فنراه ينهى أصحابه أن يبالغوا في مدحه وإطرائه فيقعوا في المحذور الذي وقعت فيه النصارى في حق عيسى ابن مريم، فمحفوظ عنه أنه قال لهم: (لا تُطْرونِي كما أَطْرَت النصارى عيسى بنَ مريم وقولوا: عبد الله ورسوله).

ونراه يدعو ربه قائلاً: " اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد"

ولعمر الحق، إن هذا لصنيع رسول صادق لا مدعٍ كاذب، فهو حريص ألا تمارس في حقه مظاهر الغلو والإطراء فضلاً عن التعبد والتأله، إنْ في حياته وإنْ في مماته.

ولقد ذكر محمد – صلى الله عليه وسلم- للناس أنواعاً شتى من الأذكار والأدعية التي أخبر أن اللهج بها من موجبات الإثابة ودخول الجنة أو من عوامل تفريج الكربات الدنيوية، مثل " سبحان الله – الحمد لله- الله أكبر- لا حول ولا قوة إلا بالله" ، اللهم إني أسألك باسم الأعظم ، اللهم إني أسألك بأنك أنت الله ، اللهم إني أسألك لك الحمد" ...إلخ ، وليس في أيٍّ منها التوجه إلى محمد بالدعاء والنداء والسؤال والطلب والثناء والمدحة، بل جميعها متوجهة إلى الله تعالى بالثناء والمِدحة والحمد، حتى إن صيغة الصلاة عليه والتي أخبر

بفضل قولها وإثابة قائلها صيغتها هكذا " اللهم صلّ على محمد، كما صليت على إبراهيم"، وهذا طلب يطلبه المسلم من الله تعالى بأن يُثني على محمد أو يرحمه، وهو – كما نبه بعض العلماء- مشعر باحتياج محمد إلى ربه بأن يصلي عليه.

ولعل القارئ يقارن- على سبيل المثال- حال ومنزلة ومكانة محمد -صلى الله عليه وسلم- في القرآن وفي أحاديثه النبوية بالمكانة والمنزلة التي يدعيها غلاة الشيعة في أئمة أهل البيت وكيف أنهم يجعلون للأئمة ما هو من خصائص الربوبية، وكيف يصرفون لهم من التعبد والتأله ما لا ينبغي إلا لله.

أو ليقارنْ تلك الحالة والمكانة في القرآن والسنة بحال ومكانة النبي – صلى الله عليه وسلم- عند طائفة من غلاة الصوفية، وكيف اخترعوا نظرية " الحقيقة المحمدية" ليجعلوا النبي- صلى الله عليه وسلم – نوراً صادراً عن الإله، ثم صدرت عنه الكائنات والموجودات!

بل ليقارن المنزلة والمكانة المحمدية في القرآن والسنة بالمنزلة والمكانة التي يجعلها أولئك الغلاة للأولياء من الأقطاب والأوتاد والأغواث الذين يزعمون أن الله تعالى فوّض إليهم تصريف الكون، وأنهم يجيبون المضطر ويغيثون في الشدائد ...إلخ.

فهذا صنيع أقوام غلوا وبالغوا فيمن يُعظمون لشدة حبهم لهم أو لاعتقادهم باستحقاقهم تلك المنزلة مع جهلهم بحقائق دين الإسلام الذي يمنع من مثل تلك الإطراءات والمبالغات التي يكتنفها الغلو المذموم، فجوهر دين الإسلام تعبيد البشر لله سبحانه وحده وقطع الطريق أمام كل محاولات لصرف العبادة لغيره كائنا من كان.

أقول: إذا كان الغلو وصل بأصحابه إلى تلك الدرجات في شأن مَن يعظمونهم مع عدم قصدهم للكذب والافتراء، فكيف

سيكون الأمر مع رجلٍ غير صادق في دعوى النبوة، رجلٍ تولى كِبر فرية عظيمة من أعظم الفرى إن لم تكن أعظمها، هل كان سيحول أمام ذلك الرجل حائل ليخترع نصوصاً تؤدي إلى تمجيده وتألهيه وتعظيمه والمبالغة في قدره، وينسبها إلى الله كما ينسب غيرها من النصوص التي يقول إنها وحي من الله إليه؟

ما الوازع الأخلاقي الذي سيحول دون أن يصنع كذاب أَشر هذا الصنيع؟! وهل بقيت به أخلاق بعد فريته الكبرى؟!

وقد قدمنا في صدر المقالة أن البُعد (البراجماتي) والنظر في العواقب ما كانا ليمنعان ذلك الكاذب من ادعاء الألوهية أو بعض صفات الإله، وأن البيئة كان مساعدة على تلك الدعوى، وأن غاية ردة الفعل تجاه دعوى الألوهية أو ادعاء بعض خصائص الإله= ما كانت لتزيد عن ردة الفعل تجاه ادعاء النبوة كذباً.

وقد نظرنا في الحالة المحمدية فلم نجد السعي إلى ذلك مطلقاً ولو على سبيل المحاولة أو على سبيل قياس ردة فعل الناس تجاه دعوى الألوهية، بل إننا لا نجد إلا كلّ ما يقطع السبيل على الآخرين في اعتقاد ذلك في محمد – صلى الله عليه وسلم- ونهيهم عن كل قولٍ أو فعلٍ يمكن أن يصبح وسيلة تمهد الطريق لرفعه عن الحالة البشرية التي يتشارك فيها مع جميع البشر، وأن امتيازه عن الناس ما هو إلا بالوظيفة الرسالية، لكنه لم يكن في ذلك بِدعاً فقد سبقه غيره من الرسل ونالوا هذا التشريف وقاموا بتلك الوظيفة.

ولا يعكر على صفو ذلك التقرير ولا يشغب عليه= ما جاء في بعض آي القرآن الكريم والحديث النبوي من مدح وثناء على محمد – صلى الله عليه وسلم- ، وبيان بعض الآداب معه، نحو {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) } [القلم: 4، 5]، ونحو { النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [الأحزاب: 6]، ومثل {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (53)} [الأحزاب: 53]

وكقوله تعالى{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات: 2]

وكذلك الأوامر المتكاثرة في القرآن بوجوب طاعة محمد – صلى الله عليه وسلم- طاعة مطلقة { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132) } [آل عمران: 132]، وأن طاعته هي من طاعة الله ومعصيته معصية لله، {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [النساء: 80] ، {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36)} [الأحزاب: 36].

فنقول:

أما المدح والثناء وبيان المنزلة والحظوة عند الله، فهو لا يخرج من كونه ثناءً على شخصٍ بشرٍ اصطفاه الله وحباه، لكنه لم يرتق مع هذا الاصطفاء إلى درجة الإله أو المشاركة في خصائص الألوهية؛ فالثناءات القرآنية على محمد- صلوات الله عليه- مقترنة بوصفه بالعبودية وأن المكانة الرفيعة التي أنالها الله إياها تفضلاً منه عليه ولتكميل محمد- صلوات الله عليه- مقام العبودية لله وتحققه بصفات العبودية المثلى من كمال الخوف من الله وكمال رجائه وكمال محبته له وكمال التذلل له وكمال التوكل عليه والاستعانة والاستغاثة به واللجوء إليه وتقديم العبادات المستحقة له على وجهها الأكمل والأوفى...إلى آخر ما هنالك، فهو عبدٌ كامل العبودية لله، وليس إلهاً ولا نصف إله ولا فيه شيء من خصائص الإله.

وكذلك ما اختصه به من أحكام لا تجري على غيره من الناس؛ فهي في مقابل ما اختصه به من تكاليف وأعباء لا يقوم بها غيره ولا يُطالب بها أحدٌ سواه.

وأما الأمر بطاعته طاعة مطلقة فهو أمر لا بد منه ما دام نبياً مرسلاً من عند الله، إذْ لو كان الناس في مندوحة من طاعته وعصيانه= لكانوا في مندوحة من تصديقه في شأن النبوة، ولما كان لإرساله معنى ولا منه فائدة، فهو مبلغ عن الله أوامره ونواهيه،

فلو كان للناس في طاعته مندوحة= لكان لهم في طاعة الله تعالى مندوحة، وكل ذلك لغو خارج عن أحكام العقل.

وأما ما جاء في السنة النبوية فيمكن للخصوم أن يحتجوا من ذلك بأمرين: الأول: نصوص نبوية ذكر فيها محمد – صلى الله عليه وسلم- من مكانته ومنزلته وفضله عند الله ورفعته في فوق الناس أجمعين، مثل قوله «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ، وَلَا فَخْرَ، وَلِوَاءُ الْحَمْدِ بِيَدِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ»

والأمر الآخر: هو ما كان يفعله أصحاب محمد –صلى الله عليه وسلم- معه من تبجيل وتعظيم يفوق الوصف، ومن تبرك بآثاره وصل إلى التبرك بعرقه وشعره وبقايا وضوئه، ونصوص ذلك متناثرة في كتب الحديث.

فنقول:

أما الإخبار بمنزلته وبما أعطاه الله من رفعة وتشريف، فهو كمثل ما جاء من ثناءٍ عليه وتفضيلٍ له في القرآن، وقد قدمنا أنه لا ضير في ذلك ما دام لم يرفع محمداً – صلى الله عليه وسلم- فوق درجة البشرية ولم ينقله إلى تقديس الألوهية ولم يأمر الناس بأي يقدموا له أي لون من ألوان التعبد والتأله، بل جعل كلَّ ألوان التعبد مقتصراً توجيهها إلى الله تعالى فحسب، بل كان محمد –صلى الله عليه وسلم- يقوم بأدوار التعبد المختلفة ويمارسها مشاقها ومكارهها كأي واحدٍ من الناس.

وقد أشرنا أيضاً إلى أن تفاني محمد – صلى الله عليه وسلم- في التعبد والخضوع لله وتكريس حياته كلها في عبادة الله وطاعته هو سبب ما امتاز به محمد – صلى الله عليه وسلم- من منزلة ومكانة عند الله. وتفاضل الناس في المنزلة عند الله ليس بمنكور كما أن تفاضلهم في التعبد والتبتل والقيام بالوظائف الإيمانية محسوس ومشاهد.

وأما الاحتجاج بما كان من أفعال الصحابة في التبرك بذات محمد- صلى الله عليه وسلم- فهو وجيه من جهة أنّ لقائلٍ من خصوم محمدٍ – صلى الله عليه وسلم- اليوم أن يقول: هذا لونٌ من ألوان التعظيم والتقديس مورس معه؛ فيكون قد استفاد من اختلاق النبوة، وأنتم تزعمون أنه ما انتفع من النبوة بشيء دنيوي فلا وجه لأن يختلق دعوى النبوة.

لكننا نقول: إن وجاهة هذا القول إنما تكون إذا نظرنا لذلك التبرك والتقديس مجرداً عن بقية أحوال محمد- صلى الله عليه وسلم- فإن المنقول عنه من تواضعه ورفضه للإطراء والغلو فيه = لا يستقيم مع القول بأنه كان ينتشي بذلك التبرك ويعده لوناً من ألوان الرئاسة والوجاهة، فإنه لو كان يراه كذلك لاستغله أيما استغلال، ولَوافق على الصور الأخرى من صور التقديس والرياسة ولسعى في ترسيخها وحضّ أصحابه عليها وإغرائهم بها، ولجعل جميع ذلك ممهداً لدعوى الألوهية.

ولقد كان واقعه –صلى الله عليه وسلم – على ضد ذلك تماماً كما بيناه، فهو حريصٌ بأقواله وأفعاله على ترسيخ اختصاص الله تعالى بالألوهية والربوبية ونفي ذلك عما سواه، وصرف جميع أنواع العبادات إلى الله وحده وعدم إشراك أحد معه في ذلك.

ومع التبرك والتقديس المشار إليه لم نجد محمداً – صلى الله عليه وسلم- يأمر أولئك المتبركين بآثاره وذاته أن يصلوا له ركعة واحدة أو يسجدوا له سجدة ولو على سبيل التعظيم، أو يصوموا له يوماً، أو ينذروا له نذراً، أو يطلبوا منه أن يمدهم بالمال والأولاد والعافية، أو يُقطعهم منازل في الجنة؛ بل أمر وشدّد في أمره أن يكون جميع ذلك مصروفاً إلى الله تعالى لأنه الرب المختص بذلك، وأما هو فبشرٌ مثلهم وغاية ما يملكه لهم أن يدعو الله لهم فيحصل بدعائه مقصودهم إنْ استجاب الله دعاءه فيهم. ورأيناه -–كما تقدم- يقطع السبل ويسد الذرائع التي يمكن أن تُفضي يوماً إلى اعتقاد ألوهيته أو صرف العبادة إليه، فلم يبق أمامنا

مناص في أن ننظر إلى ذلك التبرك المذكور وقبول محمد به، إلا على أنه داخل في شواهد نبوته والخوارق التي وقعت على يديه تصديقاً لنبوته، من نحو تكثير الطعام القليل ونبع الماء من بين أصابعه وتكليم الجمادات له وغير ذلك من خوارق العادات التي أستأنس بها أهل عصره في التصديق برسالته، فكانت بركة جسده وتبرك أصحابه بآثاره من هذا الجنس، فهو من شواهد نبوته لا من شواهد ألوهيته، ولو كان كاذباً - حاشاه- لاستغل تلك الخوارق وذلك التبرك الممارس معه في ادعاء الألوهية ولجعلهما من شواهدها وأماراتها.



- مقال
- الدكتور على حسن الروبي

الكلمة الأولى: تحليل تاريخي حول ارتباط الحرية بالعلم والمعرفة:

تعتبر الحرية من أهم القيم التي اهتم بها العقل البشري طوال تاريخه الطويل، فكان من اهتمامه بها أن اتجه بفكره نحوها ليحللها ويدرسها من كل الزوايا والأوجه التي بالإمكان أن تبحث من خلالها، فبحثت الحرية من زاوية فلسفية، وأخلاقية، واجتماعية، ونفسية، وقانونية وغير ذلك من الأوجه والزوايا.

وانطلاقا من كون الحرية قيمة تتجلى في المجتمع وأفراده عموما، ومن أن الواقع الإجتماعي يفرز مجالا واسعا يثير العقل الإنساني للبحث عن الحرية فيه، ومن جهة أخرى، بما أن البشرية إذ نلحظ مسيرتها التاريخية، تعيش مرحلة تاريخية حديثة خاصة، تعبر عن التغير الجذري والمحوري في صورة تفاعل الإنسان مع عالمه بشكل أحكم وأدق، بفضل الوسيلة العلمية التي أحكمها بعد صراع معرفي تاريخي رهيب، فإن المجال الذي يفسحه الواقع الإجتماعي العام الحديث،بما هو تقدم علمي رهيب في الكشفةعن أسرار الطبيعة واستغلال منافعها تبعا لذلك،والسيطرة عليها ، هو من الأهمية والضرورة أن يثير العقل الفلسفي للبحث فيه عن قيمة الحرية وكيفية تحدد أبعادها وآثارها في هذا الواقع الإنساني الحديث، ومن ثم فإن هذه الكتابة، تستهدف التحدث عن الحرية وتموقعها في هكذا واقع، عن العلاقات التي تجمع بين العلم والحرية،والصور التي يتفاعل بها العلم مع الحرية.

وكبداية وتمهيد تاريخي، نبدأ بالكلام عن قضية تفاعل العلم القديمالمعرفة عموما مع الحرية.

العلم القديم والحرية:

إن العلم الذي نفترضه في الجهة المقابلة حين نأتي بمقولة العلم القديم، هو ذلك النمط المعرفي الذي عرفناه في العصر الحديث، من حيث هو مسلك منضبط ودقيق يهتم فقط بالأشياء التي بإمكانها أن تتماشى مع طبيعة المسلك أو المنهج، فيدرسها ويعتبرها علما، أما الأشياء التي لا تتماشى مع هكذا منهج، فإنها ليست علما في هذه الحالة. إن العلم الحديث مؤسسة معرفية إنسانية خاصة، تختلف عن العلم القديم لا من حيث أن الأخير يتنافى ويتناقض في ماهيته عن العلم الحديث، ولكن جهة الاختلاف تكمن في كون أن المعرفة في العلم القديم كانت أشمل وأعم،بحيث أنها لم تكن تخضع،ولم يكن من الواجب أن تخضع لمنهجية التجربة والملاحظة مثلا، التي ارتكزت المؤسسة العلمية الحديثة على وجوب تبنيها كشرط من أهم شروط المعرفة، وبالتالي فإنه تبعا لهذا الاختيار، اتسمت صورة العلم الحديث بالتضييق وبحصر المواضيع التي تقبل الكشف عن حقيقتها بوسيلة التجربة والملاحظة، بينما كان الحال على غير هاته السمات سابقا، إذ إنه تبعا للمنهجية العلمية السابقة، كان بالإمكان الكشف عن الحقائق بوسائل متعددة ووواسعة، كاعتمادها على العقل المحض واستنباطاته التجريدية، واعتمادها على الوحي كركيزة يتوسل من خلالها إلى الحقيقة، وغير ذلك مما يجعل هذا العلم من السعة والعموم والشمول ما يمكننا أن نعتبر من خلاله أن الحقيقة كانت ساحة واسعة،لها عدة أبواب متعددة ومتنوعة، بالإمكان أن نقارب الحقيقة من كل هاته الأبواب، فباب العقل يدخلك لساحة الحقيقة، وباب الوحي يقودك إليها، وباب الوجدان يقودك كذلك، وهكذا...

إذا، فالعلم القديم هو الذي يفترض حقيقة أن الحقائق لها أوجه متعددة بالإمكان أن نتوسل إليها بطرق متعددة، ومن ثم كانت المعرفة البشرية عموما تشكل في مجموعها العلم القديم.

ولنا وقفة تاريخية هنا نتتبع من خلالها قضية الحرية،وكيف تفاعل العلم القديم معها، وكيف هي تفاعلت معه،

وكيف ارتبطا معا منذ القديم، وفي هذا الصدد نتطرق أولا إلى المعرفة الدينية وصورة تفاعلها مع الحرية، ثم ثانيا: الحرية في المعرفة الدنيوية، ثم نتجه لنحلل كيفية ارتباطهما في العصر الحديث.

<u>أولا: المعرفة الدينية والحرية:</u>

إن الأديان السماوية بالتحديد،باعتبارها كانت تعتبر مجالا من مجالات العلم القديم، كان لها نظر تجمع من خلاله بين العلم والحرية، ويتمثل الموضوع الذي يصور العلاقة بينهما في تلك القصة المشهورة، قصة هبوط آدم عليه وعلى جميع الأنبياء أفضل الصلوات وأزكى التسليم، من الجنة إلى الأرض، فهذه القصة تحمل في طياتها من الدلالات والمعاني ما يؤكد على الترابط بين الحرية والعلم، وسنفصل في وجه هذا الترابط وكيفيته بسرد القصة بشكل تحليلي يحرص على التنبه على مدى ارتباط العلم بالحرية في أحداثها وآثارها. وذلك بالاستناد على مقولة إريك فروم في القصة.

ففي البداية كان الرجل يعيش مع المرأة في الجنة في جو انسجما فيه مع بعضهما من جهة،ومع الطبيعة من جهة أخرى، انسجاما تاما، فلم تكن الحاجة ملحة للعمل،أو الاختيار، أو الحرية، بل حتى التفكير. ومن جهة أخرى حرم الله عليهما أن يقربا من شجرة محددة، تؤدي مخالفة أوامر الله فيها إلى معرفة الإنسان الخير والشر،وهذا ما حدث، إذ أنهما تناولا من الشجرة، فخرجا بذلك عن حالة الانسجام مع الطبيعة، وهذا الفعل تنظر إليه الكنيسة من وجه يتمثل في كونه خطيئة أساسية، بينما يمكن أن ينظر إليه من وجه يتمثل في كون هذا الفعل وإن كان خطيئة، فإنه قد رفع الانسان من حياة اللاوعي،والضرورة الطبيعية، إلى الحياة الانسانية الواعية والمسؤولة التي نعرفها،بما تعنيه من معرفة للخير والشر، والتمييز بينهما، والحقيقة أن الخطيئة هاته، تسببت بشكل من الأشكال،في كون الثواب والعقاب مسألة معقولة وعادلة، إذ إنه لولا تمرد الانسان وعصيانه بأكله لشجرة المعرفة التي نهي عنها، فيبقى هنا لصيقا بالطبيعة وضرورتها، لما كان هنالك من

معنى نضفيه على مسألة الثواب والعقاب، باعتبارها ترتكز أساسا على الحرية والمعرفة، وهكذا فإن أول فعل قام به الإنسان هو تحرره من الضرورة القاهرة التي كان يعيش ابتداء في جوها الرتيب، ووجه هذا التحرر ومحله هو المعرفة، ،ومن هنا كانت بداية العقل والعلم مرتبطة بشكل أساسي بالحرية كقيمة بشرية عظيمة،يقول فروم:" ان الانسان حين أكد ذاته بوصفه حرا، قد اختار طريق العلم،ففي فعل المعرفة تكمن حرية الانسان،وبقدر ما يتوافر لدى الانسان من معرفة، يكون حرا.

وآدم لما كان حرا فاختار مخالفة أوامر الله، طرد تبعا لذلك من الجنة إلى الارض، إنه لما اختار بحرية طريق المعرفة، اختار بحرية المشقة والعذاب اللتين تميزان هذا العلم، إذ إن المسؤولية التي يحملها على أكتافه من يريد الوصول إلى علم بالأشياء مسؤولية ثقيلة فادحة، ومن ثم اختار الانسان عذابه وشقائه.

إذا في القصة الدينية صورة ترابطية وثيقة بين الحرية والمعرفة، تتمثل في أن أول الأفعال التي مارسها الإنسان بحرية، كانت العصيان،والذي تجسد في صورة التوجه الانساني نحو طريق المعرفة..فالحرية تجسدت في العلم، اذ به يتحرر الانسان.

نبقى دائما في المعرفة الدينية وربطها للعلم بالحرية، وللحرية بالعلم، لكن سنتجه الآن لا لقصة من القصص، ولكن إلى مسألة تتعلق بمرتكزات الدين وأركانه، تلك المتعلقة بالثواب والعقاب، في هذه القضية بالتحديد، نجد ربطا تتضمنه الفكرة بين الحرية والعلم، وصورة هذا الربط المتضمن كالتالي:

إن فكرة الثواب و العقاب تفترض مسبقا وجود المعرفة التي يميز بها الانسان بين الخير والشر،ومن جهة أخرى كذلك يفترض أن يكون الانسان مخيرا أي حرا حتى يتجه بحريته نحو الشر أو الخير، فإنه تبعا لذلك،

علم، ثم أصبح حرا فاختار ، وفي الأخير يثاب أو يعاقب بعدالة الاله. ولو أنه لم يكن حرا في اختيار ما علمه من خير أو شر فإن فكرة الثواب والعقاب تكون باطلة ومستحيلة، وهكذا نلحظ هذا الربط الوثيق الذي يتجلى في مقولات الدين، بين العلم والحرية، إذ تتجلى بوضوح صورة هذا الارتباط الوثيق بين العلم والحرية، فالحرية والعلم يجتمعان معا وبشكل وثيق ليجعلا من فكرة الثواب والعقاب فكرة حقيقية عقلا. ان حرية الانسان، ومسؤوليته امام الله،تفترض وجوبا معرفته بالخير والشر، فحين يعرفهما يختار بحرية أحدهما، فيثاب بعدالة أو يعاقب بعدالة. كذلك إن العلم الإلهي الشامل الذي يحيط علما بحال الانسان ظاهرا وباطنا،هذا العلم هو الذي يضمن لفكرة الثواب والعقاب أن تكون عادلة، إذ يثاب ويعاقب بعدل ذلك الذي اختار بحرية شرا او خيرا بعد أن علم بهما.

أما عن التوجهات الدينية التي تنكر الحرية كونها تؤمن بالقدرية، فإنها في نظرتها هذه تنفي الارتباط بين العلم والحرية في مسألة الثواب والعقاب، حيث إنه لما كان الإنسان المكلف قد علم فأدرك الخير والشر، ثم لم يكن الانسان حرا في اختيار أحدهما وفق العلم الذي علمه بهما،انتفى بهذا النظر مقام الفعل الحر، فـ "اللاحرية" هي التي تمارس الفعل ان صح التعبير، ومنها يثاب الفاعل أو يعاقب!!والعلم هنا لا قيمة له إذ أنه ليس متبوعا بالحرية الواجب تواجدها ضرورة لقيام فكرة الثواب والعقاب. فليس في الإمكان في هذا أن يكون العلم نافعا لصاحبه، لافتقاره_ اي صاحبه_ للحرية في الفعل. فأقصى ما يقوده العلم إليه هو القدر المحتوم ، ونلحظ في هذا الصدد، بأنه على الرغم من هذا الفصل بين العلم والحرية الذي يظهر في مذهب القدرية، إلا أن نظرتهم هذه تحمل في ذاتها فكرة ربط بين الحرية والعلم من جهة سلبية، فعدم تأثير العلم وفقدانه لقيمته بعدم قدرته على تحديد مصير الانسان، مرتبط بشكل واضح بانتفاء الحرية وانعدامها، فلما كانت الحرية منتفية، تبع هذا الانتفاء انتفاء لقيمة العلم والمعرفة. كانه بفقدان الحرية يفقد العلم قيمته؟! كذلك نلحظ من

حيث المسلك الالهي الذي يتصورونه، ربطا بين الحرية والعلم في مقام الألوهية، فالإله هو الحر الذي يسطر المكاتيب والأقدار كيفما يشاء،وسبب هذه الحرية يكمن في العلم المحيط المطلق للاله، فبهاته المعرفة المطلقة يكون الإله حرا، وإذ بما إنه يفترض بأن الكائن الحر هو الذي يحيط علمه بمجرى الحوادث وبأسباب حدوثها،فإنه لا يوجد كائن حر إلا الله. طبعا هذا التحليل البرهاني ينسب إلى القدرية لا إلى الكاتب. ومن هنا نكشف عن تضمينات يربط فيها القدرية بين الحرية والعلم، من حيث أن الكائن الحر هو العالم الذي يعلم مجرى الاحداث واسباب وقوعها،وبالتالي يربطون بين الحرية والعلم من هاته الزاوية.

<u>ثانيا: الحرية في تاريخ الفكر الفلسفي:</u>

يشهد الفكر الإنساني عموما، في عصوره المختلفة، توثيقا عميقا بين العلم والحرية، وسنتحدث هنا عن الفكر اليوناني القديم، إذ إن الحرية في الحقيقة كان لها عندهم وجهان، في كلتيهما يرتبطان بالعلم أيما ارتباط، يتمثل الوجه الأول للحرية في الفكر اليوناني في تلك الصورة الاجتماعية التي كان اليونان يعيشونها،إذ إنهم كانوا مجتمعا طبقيا يتميز فيه الحر عن العبد، ووجه التميز هو الذي يدلنا على ارتباط الحرية بالعلم، إذ إن الحرية كانت تعني مقاما متاحا للانسان الحر، يمارس فيه فعل العلم والمعرفة، في مقابل تكليف العبيد بمهمة القيام بالأعمال الاقتصادية المرهقة،فيستطيع بذلك الحر التفرغ لرعاية جسمه وعقله خصوصا، ومن هذا الواقع الذي يربط الحرية بالعلم، أنتج اليونانيون تراثا معرفيا لا تزال آثاره حية في واقعنا المعاصر،ولقد أكد كثير من مؤرخي الفكر الفلسفي على التنبيه على هذا الواقع، بحيث أن التفوق الذي أحرزه اليونان في الرياضة والفلسفة كان يرجع جزئيا على الأقل ،إلى انتشار نظام الرق، الذي أتاح لفئة معينة

الحرية اللازمة لممارسة العلم والمعرفة، فبالحرية مارسوا إنتاج اجود المعارف والعلوم،ومن جهة أخرى، ان انتفاء الحرية عن العبيد، أدى إلى انتفاء المعرفة والحكمة كونها منعدمة عند هؤلاء.

أما بالنسبة للوجه الثاني للحرية عند اليونانيين، فهو المتمثل في الحرية الأخلاقية او المعرفية ان صح التعبير عنها، تعني هاته الحرية، أن الحرية الحقيقية، ليست تلك التي تتتمثل في البعد الاجتماعي السائد آنذاك، بل هي التي يكون محلها النفس والذات والعقل، فالانسان الحر، هو ذلك الذي يسيطر على انفعالاته ويضبطها وفق السنن الكلية للكون والوجود، ولاينقاد من أهوائه ونزواته العبثية،هو الذي يتحكم في الظروف الخارجية مهما كانت مؤلمة او معاكسة، فهذا المفهوم الذي كان متدوالا عند اليونان آنذاك يعبر بشكل واضح عن العلاقة التي تربط الحرية بالعلم، فإن كانت الحرية كما قالوا هي أن يسيطر الانسان على نزواته ويضبط تصرفاته وفق السنن الكونية العامة، فإنه يفترض من هذا أنه لابد من المعرفة والعلم حتى يتمكن الانسان من معرفة الضرورة السائدة في الكون، فيضبط تصرفاته وفق هذه الضرورة الموجودة، ومن ثم يكون حرا..

إن الوجهين الذين يمثلان الحرية في العصر اليوناني القديم، يرتبطان كما رأينا بالعلم ارتباطا وثيقا، إلا أنه من جهة أخرى نلحظ أن الحرية عندهم لا يمكن أن تتحقق إلا لفئة قليلة من الناس، وهي بحكم تعريفها في كلتا الحالتين، ضيقة النطاق والمجال، فهي لا تتحقق إلا لمن توفرت لديه الوسائل المعينة على التفرغ للعلم والمعرفة، بحيث إنها من جهتها الاجتماعية لا تنطبق على المجتمع كله،بل على فئة محددة وضيقة من أفراده، وهي ضيقة النطاق والمحدودية كونها ترتبط فقط بمن سلك مسلك ضبط النفس والسعي لضبط انفعالاتها،وهكذا في العموم كانت الحرية عند اليونان ضيقة النطاق تضم فئة قليلة من المجتمع، وبصدد هذا أشار هيجل إلى تقسيم ثلاثي لمراحل الحرية في التاريخ، فالمرحلة الأولى أين كانت الحرية محصورة في الفرد

الواحد المستبد، ثم المرحلة الثانية التي تتسع شيئا ما لتسع فئة قليلة من المجتمع كما هو الحال عند اليونان، ثم المرحلة الثالثة أين تتسع الحرية أكثر فتستوعب جموع البشرية المعاصرة..

وهيجل إذ ينظر لهذا التقسيم المرحلي للحرية من جهة تعميمها بشكل متصاعد يستوعب الجموع البشرية، إنما كان يرى بأن صورة تحقق هذه المرحلة الإستغراقية، تتجسد في الأمة الألمانية، باعتبارها المثال المجسد لاستيعاب قيمة الحرية لجميع أفرادها، ولا غرابة في وصف هذا الإسقاط باللامنطقي، بل هو من الذاتية واللاموضوعية بمكان، إذ إن قوله هذا لا تسعفه المعطيات التاريخية الواقعة آنذاك في الأمة الألمانية.

شمولية الحرية والعلم الحديث:

على كل حال، إن المقولة التي توسع مجال الحرية في العصر الحديث ليتضمن كل البشرية، تتمتع بشيء من المصداقية،من جهة باعتبار أن المقصود بالبشرية ليس ذلك الذي قصده هيجل، ومن جهة ثانية باعتبار أنها ليست واقعا متحققا، بل مثلا تنادي وتلح على البشرية الحديثة أن تسير بمسلكها وطريقها، فالبشرية في هذا العصر،تتخذ من حرية المجموع هدفا تسعى إلى تحقيقة باستمرار بوجه شمولي عام، بينما كان الواقع الكلاسيكي في مجموعه يفتقد هذا المسعى ويتجاهله، ومثال العصر اليوناني الذي سقناه سابقا، لهو خير دليل على افتقار هؤلاء لما تميز به المحدثون من سعي للحرية الشاملة للكل، فالحرية عندهم لم تكن مثالا يسعون إليه وإلى تحققه في المجموع، بل اقتصر سعيهم إليها على نمط طبقي يهدف فئة معينة دون سواها، صحيح أن الإنسان الحديث بعيد كل البعد عن تلك الحرية التي يحلم بها، وأن هنالك مجتمعات كثيرة تعيش في ظل نظم لا تسمح مبدئيا بتحقق الحرية للمجموع، لكن ما يهمنا في هذا المقام هو أن الدعوة إلى الحرية الشاملة للمجموع أصبحت هدفا معلنا ومثالا مقدسا يتداول بشكل كثير

و رهيب، وهذا الواقع على مافيه من خلل في الفهم والتوجه، لم تكن المجتمعات البشرية السابقة أبدا تتخذه كمثال أو هدف تعلن عنه وتنادي به، فما السر وراء هذا الاتساع المجالي للحرية؟! وكيف نفسر هذا التغيير الجذري في نظرتنا للحرية؟؟

إن تنصيب الحرية كمثال ودعوة يراد لها أن تتحقق بوجه شامل عام للبشرية كلها، مرتبط أساسا بعصر التصنيع وما عناه آنذاك من توجه للنظام الصناعي،ولأن هذا العصر إنما هو نتاج ثورة علمية تاريخية أحدثتها البشرية، فإنه يتجلى لنا وبوضوح مرة أخرى ذلك الارتباط الوثيق الذي يجمع بين الحرية والعلم،فبالعلم توسع نطاق الحرية، سواء من جهة التحرر من الجهل ،ومن الضرورة الطبيعة والسيطرة عليها وإخضاعها لحريتنا، أو من جهة إسهام العلم في توسيع نطاق الحرية وارتقائها بسبب العلم لتكون مثالا مقدسا يراد له أن يستوعب البشرية كلها، فالعلم هنا أسهم في إثارة الوجدان البشري وتحفيزه على مزيد من الحرية.

إن العصر الحديث، يجسد بصورة جميلة وعظيمة، ذلك الترابط الجدلي بين العلم والحرية، ذلك أن العلم في هذا العصر، وهو يخطو كل خطوة معرفية إيجابية، يتيح للانسان أن يخطو خطوة مماثلة في مسلك الحرية، فهما يتقدمان بشكل مترابط ومتناسق، ففي عصر النهضة التي تمثل البوادر الأولى لهذه الثورة العلمية المباركة، كان المنهج العلمي الذي تحددت بشكل تدريجي معالمه، خطوة واسعة يخطوها العلم أتاح من خلالها للإنسان أن يتحرر آنذاك من سلطة الكنيسة، لا بوصفها دينا بطبيعة الحال، ولكن بوصفها كيانا تاريخيا يتوسل بالمطلق ليستولي على زمام أمور حياة الإنسان كلها،ولم تكن كذلك كشوفات كبرنيكس وكبلر وجاليليو الفلكية مجرد خطوات جبارة وعظيمة خطاها العلم الجديد، ولكنها كانت كذلك تحررا للانسان من خرافات تتمثل في الاعتقاد بأن الارض هي مركز

للكون، وبأن الكون يدور على هاته الارض بينما هي ثابتة مستقرة، وغير ذلك من الأخطاء البشرية المفيدة تاريخيا حقيقة، لو لم يصحبها استبداد وفرض يثبت أركانها في واقع يكذبها ويعيبها.....{يتبع}

توضيح منهجي عام:[الكلمة الأولى تكون المقاربة فيها بين الحرية والعلم مقاربة تاريخية عامة وهو ما طرحناه هنا، ثم يلي هاته الكلمة مقاربة أخرى من حيث الجانب التنظيري،بعد هذا تكون الكلمة الثالثة بمقاربتها العملية للحرية والعلم الحديث على وجه الخصوص]



- مقال للأستاذ قراب جيلالي

تقديم : وائل مجدي

تصميم . أحمد مازوز